بعد الخمسين

(سيرة ذاتية)

الدكتور محمود الربيعى



الـكـتـاب : بعد الخمسين (سيرة ذاتية)
المؤلف : د. محمود الربيعى
رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٨٢٥٩
تاريخ النشر : ٢٠٠٤
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 -770 - 5

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

إلى أحفادى :

عمر ، ونورا ، وحكيم ، ونادية :

نعم ، سرى طيف من أهوى فأرّقنى

والحب يعترض اللذات بالألم !

٢٨ رمضـان ١٤٢٤هـ

٢٢ نوفمبـــر ٢٠٠٣م

مقدمة

حين ظهر كتابى «فى الخمسين عرفت طريقى» سنة ١٩٩٠، فى طبعة متواضعة ، على حسابى ، لم يوزع منه سوى مائة نسخة، لكن الكاتبين كتبوا عنه كثيرا! وأذكر ممن كتبوا عنه فاروق شوشة ؛ فقد أفاض فى الحديث عنه مطرياً ، ثم ذكر فى وصفه عبارة عابرة، كنت أرجو أن يفصل القول فيها ، وهى أن الكتاب به «لمسة صوفية». ومع أنه عاد إلى الكتابة عن الكتاب ، فى طبعته الثانية ، على نحو ضاف كذلك ، فإنه لم يعد لهذه العبارة، التى أدهشتنى منه ، والتى كنت أتوق إلى أن يجلى مقاصده بها، لى وللقراء ! كذلك كتب عنه فاروق عبد القادر ، ومحمود عبد المنعم مراد، وسامح كريم ، وفؤاد دوارة ، ومحمد حسن عبدالله ، ومحمد الجوادى، وكانت كتاباتهم تجمع بين الوصف، والتحليل، والإطراء. وكتبت عنه عايدة الشريف ، فحللتنى تحليلا نفسيا قائلة : إننى- الصعيدى الأزهرى الدرعمى- لا أخصص مقعدا مجاورا لى لزوجتى، فدهشت

لقولها ؛ إذ كان شوقى ضيف قد أرسل لى بعد أن قرأ الكتاب يقول إن ما لفت نظره أن صورة زوجتى تتخلل كل ركن فيه ، فهل يمكن أن تختلف النظرتان فى أمر واحد إلى هذا الحد؟ كذلك قالت عايدة الشريف : إننى أخاف من الحسد؛ حين أحرص فى كل إنجاز لى أتحدث عنه على أذكر أن أقرانى ينالون مثله. وردى على ذلك بسيط، وواضح لى ، وهو : كيف يمكن أن أخاف من الحسد، وأنا من المعروفين بالسباحة ضد التيار فى مجتمع يؤمن فى مجمله بصيغة للحسد أراها أنا من باب الخرافة؟ على أن ثمة احتمالا آخر هو أن عايدة الشريف - وهى رحمها الله من أعز الناس على نفسى - كانت تعابثنى .

أما محمد مستجاب فقد كتب عن الكتاب قائلا : إنه أطلعنا من بيت الكاتب على «حجرة الصالون» فهل كان ينتظر منى مثلا أن أطلعه على «دورة المياه»؟ والعبارة مدهشة وكاشفة؛ وهى كاشفة عن اتجاه الكاتب أكثر مما هى كاشفة عن اتجاه الكتاب. ويكفى أننى أقود ضيوفى إلى غرفة الصالون، ولا أقودهم - جماعة- إلى «دورة المياه» ، والذى يطلب الذهاب «إلى الحمام» من جملة هؤلاء الضيوف ، سيجده فيما آمل ، حين أن أشير إليه إلى موضعه، نظيفا!.

وكتب عنه سيد النسّاج مطريا ، واتخذ الكتابة عنه سبيله إلى الكلام على فساد الحياة الثقافية فى مصر ، فظفر من عبد الفتاح رزق فى « روز اليوسف» بمقالة مضادة ، لم تفند شيئا مما قاله سيد النساج عن الكتاب ، وإن ركّزت – ولا أدرى لماذا؟ – على ما أسمته «لواعج الدكتور النساجً » !

وقدمت نسخة منه إلى محمود شاكر مهداة باقتباس من المتنبى:

علیم بأسـرار الديانات واللغى   له خطرات تفضح الناس والكُتْبا

فكلّمنى مبديا سرورا عزيزا ، وقال لى إنه منذ أن تناول الكتاب.لم يتركه حتى انتهى منه فى الليلة ذاتها ، وكانت الساعة ، إذ ذاك ، الثالثة صباحا ! والذين يعرفون نهج محمود شاكر فى الإطراء ، يدركون السبب فى السعادة العظيمة التى أستشعرها بسبب إشارته تلك . وفى المقابل، أرسلت نسخة من الكتاب ، فى مظروف مغلق ، إلى شخص عزيز على قلبى ، فأعاد لى المظروف مغلقا ، ورفض استلام النسخة ؛ محتجا بأنه قرأ الكتاب بالفعل ، فلا حاجة له إلى النسخة. ويبدو أن الصورة التى قدمتها له فى الكتاب– وقد كتبت عنه بالفعل صفحات مختصرة – لم ترق له ، لكننى أقول إنه حتى لو كان ذلك صحيحا ، فإن تصرفه معى على هذا النحو يبقى خشنا!

وقال محمد حماسة عن الكتاب: إن به عبارة واحدة غير صادقة ، وهى تلك العبارة التى أقول فيها إننى لا أحفل بالمال، ولا أسعى إلى امتلاكه ، ولا آسى على نقصانه. ويبدو لى أنه خلط بين «عدم احتفالى» بالمال ، «وعدم سعيى لامتلاكه» ، و«عدم أساى على نقصانه» فى ناحية ، وبين امتلاكى له بالفعل فى ناحية أخرى . ولا أظن أنه ينتظر منى مثلا أن أتخلص مما أمتلك من المال ، لأثبت له صدقى فيما قلت !

وسمعت أن بعض أهالي جهينة - قريتى العتيدة التى أصبحت الآن مدينة مترامية الأطراف - تحلقوا فى مقاهيهم المتواضعة ، يقرءون - أو يقرأ لهم - تحت الأضواء الخافتة - صفحات منه ؛ فأثلج ذلك فؤادى ، وأنسانى ألم إعادته لى فى مظروفه المغلق ، كما أنسانى النسخ المائة البائسة التي وزّعها الكتاب!

وقرأته درّية فهمى - وكانت قد تجاوزت المائة من عمرها- فقالت لى إنه لايحتوى على أى شئ غير عادى ، فنبّهتها إلى أنه «بيوجرافيا تعليمية» ، وليس من أدب «الاعترافات» ، ثم زدت فقلت لها مداعبا ؛ أليس من غير العادى أن من نشأ فى بيئة لا تؤهله

معرفيا إلا لمجالسة مؤذنى القرى ، ومعلمى كتاتيبها ، ومدّرسى المراحل الإلزامية فيها ، أصبح يجالس درية فهمى؟ فلكزتنى بكوعها الواهن لكزة خفيفة فى ذراعى، ولم تجب ، لكننى نظرت إليها فوجدت أن وجهها الجميل يتألق بابتسامة لم أشك فى أنها من ابتسامات الرضا !

وأمّلت من أناس أكنّ لهم الاحترام والمودة أن يهتموا به، ويكتبوا عنه ، سلبا أو إيجابا ، فلم يفعلوا ! وأوصل إلىّ آخرون أن ما ينقص الكتاب تناول «الثالوث المحرم» السياسة والجنس والدين فلم أهتم كثيرا بما قالوه ، وازددت التصاقا بما أعتقده من أن العبرة بفحص ما قيل ، لا بالكلام على ما لم يقل ، وأن التفتيش عن «المسكوت عنه» كالتفتيش عن النوايا والمقاصد ، أمر لا طائل وراءه ، ومن ثم فهو «بالترهات» أشبه !

ولم يَدُر بخاطرى قط أن كتابى ذاك سيكون له جزء مكمّل ؛ وذلك لأننى لم أقدّر قط- حين كنت فى الخمسين من عمرى- أننى سأعيش حتى سن السبعين. حقا إن الأعمار بيد الله ، لكن أبوىّ لم يعمرا ، وبيئتى التى نشأت فيها بيئة صعبة ، وحياتى التى عشتها حياة صعبة ، وصحتى لا يمكن أن توصف بأنها ممتازة ، وإن لم

تكن ضعيفة ؛ لذا فقد كانت حساباتى تجعلنى أقدر أن «نصف قرن» من الزمان على هذه الأرض لحياة مثل حياتى، يكفى ويزيد، ولعل هذا كان وراء حرصى الشديد على أن يرى كتابى النور قبل رحيلى ؛ ولست متأكدا من أننى لم أنجزه - يومئذ- على عجل !

لكن ها هو ذا القدر يمهلنى حتى أتجاوز السبعين ، ومعنى هذا أننى بقيت فى معترك الحياة عقدين إضافيين. وهما عقدان حافلان ؛ ماتت فيهما قيمٌ ، وولدت قيم ، وحدثت تغيرات هائلة على مستوى الوطن والعالم ، كما حدث فى حياتى الشخصية ، والمهنية والثقافية ، ما أراه جديرا بالتسجيل .

وأعاهد القارئ على أننى سأمضى فى الكلام على حياتى بعد الخمسين بالروح ذاتها التى عهدها منى فى الكلام على حياتى حتى الخمسين : آخذ راحتى ، وأفضى إليه بما أريد فى مباشرة ووضوح، عاملا على أن أبنى جسور الثقة بينى وبينه عن طريقّ «الصدق» ، لا طريق «الإثارة» ، وعن طريق الاحتفاء «بالأفكار» لا «الأشخاص» ، كما أعاهده علي ألا أقدم إليه من الأحداث إلا ما كنت طرفا فيه ، أو شاهد عيان عليه ، أو وصل إلىّ من مصدر لا تعتريه شبهة.

وفى ملحق الكتاب - الذى أرجو أن يعده القارئ ملحقا للجزءين - متسع للحديث عن تعليمى ، وإنجازاتى الأكاديمية والثقافية ، كما أن فيه متسعا للحديث عن بعض من تعلّمت على أيديهم ، فتعلّقت بهم على مرّ السنين.

محمود الربيعى

الفصل الأول

فى وكالة دار العلوم

أبدأ هذا الفصل بقصة من قصص «دار العلوم» الفلكلورية: يحكى أن أستاذا قديما من أساتذة الدار قال، حين عرضت عليه وكالة الكلية: «لا يدخل الوكالة إلا حمار». لكننى دخلتها!، ودخولى إياها يعفينى من الاعتذار، عن إيراد هذه العبارة، لكل من دخلها قبلى أو بعدى. كنت عائدا لتوّى من إعارة فى جامعة الكويت، امتدت لأربع سنوات، من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢؛ أُعانى من ارتباك شديد فى إلحاق أولادى فى جامعتى القاهرة وعين شمس، وأمرّ بفترة نقاهة، إثر عملية جراحية، وعلى ذلك فيبدو أن عرض «الوكالة» علىّ فأجأنى، وأنا فى حالة معنوية «متردية» ؛ فقبلتها دون تفكير طويل!

لم يكن لدّى سبب قوى لقبول الوظيفة، ولا كان لدىّ سبب قوى لرفضها، فقبلتها، وأقنعت نفسى أننى يمكن أن أقدم «شيئا» فى مجال الخدمة الإدارية العامة، التى لم أكن مارستها من قبل. وأعترف الآن أنه كانت كذلك على عينى غشاوة، فيما يتصل بأوهام «الترقى الوظيفى» إلى «وكيل» ، و«عميد» ، وما بعدهما؛ متأثرا فى ذلك بالخلط الحاصل بين «الأكاديمى» ، «والإدارى»! ذلك الخلط

الذى يجعل الناس ينشطون للبدء فى السلم الإدارى فور وصولهم إلى «السنام» الأكاديمى! وعلى كل حال فقد كنت من الثقة فى نفسى، وقدراتى، ومؤهلاتى ، بحيث رجح عندى أننى أستطيع أن أحقق بعض أحلامى فى الإسهام فى التعليم الجامعى عن هذا الطريق، ودفع عجلة التقدم المعرفى- وهى عجلة بطيئة فى بلادنا- لتدور بطريقة أسرع وأفضل. وحين أصبحت وكيلا للكلية كنت فى الخمسين من عمرى.

عيِّنت بقرار من رئيس جامعة القاهرة وكيلا «لشئون التعليم والطلاب» لمدة ثلاث سنوات، ولما لم يكن ثمة وكيل «لشئون الدراسات العليا والبحوث»، فقد توليت أعماله، ولما لم يكن ثمة «رائد لاتحاد الطلاب»، فقد توليت أعماله، وهكذا أصبحت محملا- دفعة واحدة- بأعباء جسام، لكنها كانت «جساما» على الورق، أما فى الواقع فإن جسامتها تتوقف على طريقتك فى النظر إليها؛ وإلا فكيف كان ينهض بها جميعا فرد واحد هو الوكيل الذى حللت محله؟!

دعيت فى الغد لزيارة المسئولين فى الجامعة للتعرف عليهم، وتقديم «واجب الشكر» لمن أصدر قرار تعيينى، ولم يكن لى عهد بالتردد على مكاتب هؤلاء المسئولين. كان الترحيب بى مقتضبا،

وكان ردى– «وشكرى» – أكثر اقتضابا. ودار الحديث بين الزوار المزدحمين فى جو من المجاملات المفرطة، ولم يتناول موضوع الحديث أى شأن من شئون العمل. ودارت عينى فى المكاتب الفخمة، ولم أستطع أن أمنع نفسى من المقارنة بينها، فى فخامتها، وبين مكاتب أخرى لمسئولين مشابهين في جامعات بلاد أخرى، أغنى منّا، وأكثر تقدما– فى تواضعها، وفى كونها هناك ليست أكثر مما يسمونه «غرف عمل» Working Rooms. ولم أخرج من هذه الزيارة بأىٍّ مما أمّلت في أن يكون إرشادا يساعدنى على أداء المهمة التى أوشك على تحملها، والتى كنت أتصور أنها «هائلة»!

أنتقل الآن إلى وصف عناصر الحياة التى واجهتها فى «الوكالة» ، وأبين أسلوبى فى العمل اليومى من الناحيتين الإجرائية والفكرية، وأُتبع ذلك بالكلام على القدر الذى أعتقد أننى حققته من خطتى فى تطوير العمل، ثم أختم بوصف المشكلات التى تكدست فى طريقى، وجعلتنى أختصر فترة «وكالتى» وأتركها مستقيلا بعد سنتين، عوضا عن ثلاث.

وأود أن أبدأ من «البيئة الفيزيقية»، فأتحدث عن المبنى المسمى «بالمبنى الجديد» لدار العلوم، وهو المبنى الكائن فى عمق

الحرم الجامعى، قرب شريط سكة حديد الصعيد، وكانت «الدار» قد انتقلت إليه أواخر السبعينيات من القرن الماضى، مخلفة وراءها مبناها المعروف «فى المنيرة» . لا يحتاج الإنسان إلى خبرة فى فن المعمار ليدرك أن هذا المبنى مبنى قبيح. والواقع أننى رأيت مبانى يمكن أن أقول عنها - باطمئنان - إنها مبان جميلة - فى القاهرة، وفى المدن المصرية الأخرى (لا أستثنى أسيوط وسوهاج!)، وفى الإسكندرية، وفى لندن، وباريس، ومدريد، وادنبره، واكسفورد، وكمبردج، وغرناطة، وطليطلة، وامستردام. وأنا أريد بهذا أن أقنع قارئى بأننى يمكننى التمييز بين الجميل والقبيح من المبانى؛ فإذا قلت له إن مبنى دار العلوم الجديد مبنى قبيح، فأرجو منه أن يثق فى صحة كلامى. هو مبنى لا أعتقد أن مصممه كلّف نفسه أى مجهود فنى. ذلك لأنه مجموعة من الحيطان، التى تضم فى داخلها مجموعة من المسطحات «المبلطة»، والحجرات المصمتة، المتفاوتة الحجم، ولا شئ غير ذلك. ليس ثمة مداخل، أو مخارج، أوردهات، أو ساحات، أو أروقة - دعك من الزخرفة، والنمنمة، وبقية المحسنات! وعلى ذلك فهو مقبض للنفس إذا نظرت إليه من الخارج، ومقبض لها إذا تجولت فيه. إنه يفرض عليك جو السجن «الاسمنتى» ، أوجو المصالح الحكومية، ولم أتلق تعليمى قط فى مبنى يشبهه؛ فقد

وصفت المعمار الجميل لمعهد أسيوط الدينى فى كتابى «فى الخمسين» ، كما وصفت العمارات الثلاث التى كان يحتلها معهد القاهرة الثانوى، وذلك فى مرثيتى لصديق عمرى أحمد مختار عمر؛ فقلت عنها: إنها كانت مهملة ولكنها جليلة المعمار. أما معمار دار العلوم القديمة فحدث عنه ولاحرج، وأما معمار الكليات التى درست فيها فى جامعة لندن، ففيها جمال القِدَم وجلاله.

«يزيّن» اتحاد طلاب الكلية، فاتحة كل عام دراسى، واجهة الكلية بلافتات ورقية وقماشية، وبملصقات عشوائية، لا أصف مضامينها الخالية من أية قيمة فكرية أو روحية، وإنما أقول فحسب إنك إذا نظرت إليها، وأنت تتأهب لدخول المبنى، أحسست أنك داخل إلى مدرسة إعدادية -لا أكثر- من مدارس هذه الأيام. أما إذا دلفت داخلا فإنه يروعك تكدس الطلاب والطالبات- وكانوا لذلك العهد اثنى عشر ألفا- مع كل من يقوم على شئونهم- وعددهم بالمئات- فى دهاليز ضيقة، تحدها حيطان كالحة، وتحكمها أبواب متهالكة. فإذا دخلوا إلى الدروس دخلوا إلى «مدرجات»، هى فى حقيقتها «مسطحات»، لا يرى أول الجالسين فيها آخرهم، ولا يرى آخرهم «الأستاذ» ، ولا يسمعونه؛ وذلك لأن الآلة المتهالكة التى يطلق عليها «مكبر الصوت» غالبا ما تكون معطلة !

وهكذا تجرى أحوالهم من درس إلى درس، فإذا كان ما بُعيْد منتصف النهار قُذفوا إلى الشارع، وأوصدت الأبواب الرئيسية، وخلت الكلية إلا من أعداد قليلة، ممن يسمون بطلاب الدراسات العليا. والغريب فى الأمر أن هذا المشهد المزعج، لم يزعج أحدا قط ممن يعنون بالأمر، بل إن العكس هو الصحيح؛ إذ فى مطلع كل عام دراسى، ينقص فيه عدد الطلاب المرسلين إلى الكلية، من مكتب التنسيق- ولو بنسبة ضئيلة- يظهر أثر ذلك غمًّا ونَكَداً على وجوه أعضاء الهيئة التدريسية، وذلك بسبب ما يتوقعونه من نقص توزيع عدد كتبهم وملازمهم هذا العام، نظرا لنقص عدد الطلاب !

فإذا تأملت توزيع هذه المساحة الضيقة على من يستخدمونها وجدت أن مكتبىْ العميد والوكيل يظفران بنصيب الأسد فى المساحة، ثم تجىء غرف الأساتذة، ثم يجىء الموظفون، وتبقى حجرة متميزة لضابط الحرس، وللطالبات حجرة مهجورة يرثى لها، وتخصص المساحة الأقل للغرض الأصلى الذى بنيت البناية من أجله، وهذا هو الهرم المقلوب، الذى سبب لى نكدا دائما، ودفعنى للتأمل فى هذا الوضع المأساوى المتحقق على كل المستويات محليا وعالميا : من يستحقون العيش فى الهامش

يعيشون فى القلب، ومن يستحقون العيش فى القلب يعيشون فى الهامش!

وما يقال عن توزيع المكان يقال عن العناية بالمكان؛ فمكتبا العميد والوكيل نظيفان، لايشكوان أى قدر من الإهمال، ومكاتب الأساتذة تلقى عناية لا بأس بها، ولابد أن تكون حجرة ضابط الحرس نظيفة؛ فأنا لم أرها قط، ولكننى لم أسمع شكوى منه من عدم نظافتها. أما «مسطحات» الدراسة فلا تلقى عناية تذكر، وهى «نموذجية» فى إعطائها صورة صحيحة للمصالح الحكومية ؛ التراب المتراكم، والنوافذ المحطمة ، والمقاعد المتهالكة. وقد حوّلنى حالها البائس أحيانا إلى «رئيس فراشين» برتبة وكيل كلية، فكنت أطاردهم أحيانا، وأرغمهم على تنظيف أماكن الدراسة قبل مواعيد العمل، وكانوا هم يضيقون بذلك أشد الضيق، ويميلون إلى التجمع فى الأركان المشمسة لتناول الإفطار، أو يتوارون منى فى دورات المياه !

فى هذا الجو من الإهمال البيئى، والتكدس العشوائى، تنمو «أخلاقيات الزحام» وتتوالد ألوان من السلوك التى تحبط كل مجهود إصلاحى، وتقضى- أولا بأول- على أية فوائد محتملة، يمكن أن

تحققها أربع سنوات دراسية مليئة بالثقوب! وإلى هذه البيئة، غير المعدة للجو التعليمى أصلا، يقذف ما يسمى بمكتب التنسيق للجامعات كل عام، بأعداد أملتها السياسة لا الإمكانات -على نحو قريب مما اشتكى منه طه حسين فى «مستقبل الثقافة..» (مما يبدو معه أن التاريخ يعيد نفسه) - وهى أعداد قادمة أصلا من تعليم عام متآكل؛ فتظل تضطرب فى شبه غيبوبة، متنقلة بين السنوات، والمواد الدراسية، حتى تجد نفسها- فى نهاية المطاف- وقد عادت إلى الطريق؛ طريق الحياة هذه المرة، حاملة «ورقة» تسمى «الشهادة الجامعية» ، ليس لها رصيد معرفى يذكر!. وعند هذه النقطة المناسبة أتحول إلى الحديث عن «الهيئة التدريسية» فى الكلية.

تلقيت تعليمى فى «دار العلوم» أواخر الخمسينيات من القرن الماضى، على يدى أساتذة، حصل معظمهم على مؤهلاتهم العالية من أوربا، وحصل أقلهم على مؤهلات «محلية». أما حين عينت وكيلا لها، بعد تخرجى فيها، بحوالى ربع قرن من الزمان، فقد كانت الهيئة التدريسية فيها- فى أغلبيتها الساحقة- مؤهلة تأهيلا محليا، وكانت طائفة كبيرة من هذه الأغلبية قد التحقت بالهيئة التدريسية

بعد عمل فى التعليم العام يبلغ فى كثير من الأحيان ربع قرن من الزمان. وأنا لا أريد أن يفهم من كلامى هذا أننى أفضل التأهيل الأوربى على التأهيل المحلى، وإنما أريد فحسب أن أشير إلى ما هو واضح من حرمان الهيئة التدريسية المؤهلة محليا من النوافذ المعرفية اللازمة لكل تأهيل أكاديمى ملائم، كما أريد أن ألفت النظر إلى ما ترتب على جفاف هذا الينبوع من ضعف عام لهذه الهيئة التدريسية، واضح لكل ذى عينين. ولم يُجْد فى جَبْر هذا الصدع الهائل ما لجأت إليه الدولة من حلول ترقيعية، مثل إيفاد أعضاء هيئة التدريس إلى الخارج فى «مهمات علمية» لمدة عام بعد حصولهم على الدكتوراة، أو ما أطلقت عليه «الإشراف المشترك»؛ فقد اتضح فشله من الجولات الأولي. ولم يحقق حل من هذه الحلول ما كان يحققه «نظام البعثات»، من فتح نافذة طبيعية حقيقية، ثقافية - أكاديمية- على الخارج .

ومما زاد الطين بلّة- كما يقال- حدوث «انفتاح» مضاد تزامن مع هذا الانغلاق، وذلك نتيجة لتوسع دول الخليج فى إنشاء الجامعات، بدءا من الستينيات من القرن الماضى، وحاجتها المتزايدة- لذلك - من أعضاء الهيئة التدريسية فى مواد تعنى بها

«دار العلوم»، وتعرف بالتميز فيها «تاريخيا». وغنىّ عن القول أن ذلك فتح شهية الدولة والأفراد إلى التخلى عن رعاية «الداخل» ، وذلك لما يجلبه من رخاء مادىّ، وذلك مهما غطته اللغة الدبلوماسية من كساء ظاهرى يحمل عبارات «التعاون العلمى» ، «والنشر الثقافى» ، وما إلى ذلك. ولا دليل لى على بطلان هذه «المقولات» إلا تساؤلى البسيط من أنه لو كان «التضامن» أو «الأخوة» أو «نشر المعرفة» هو السبب وراء نظام الإعارات- أو التوسع فيه- لحوفظ على ميزان عَدْلٍ لا يخرّب بيتا على حساب بيت آخر ، أو يخلى معهدا علميا على حساب ملء معهد آخر- مما حدث فى شبه نزيف- على طول الأربعين سنة الماضية، ومما يشهد به الجميع! لقد أصبح العنصر الاقتصادى سيد الموقف، وليس من حق أحد بعد ذلك أن يزعم أن المستوى الأكاديمى على مايرام- أو له علاقة بما يرام- أو يتباكى على المستوى المعرفى !.

وأخطر ما فى الموضوع أن كثيرا من هؤلاء الذين ذهبوا لم يعودوا بالمال فحسب، وإنما عادوا يحملون عادات سلوكية غريبة، وأفكارا أشد غرابة، سرعان ما انتشرت فى جو الكلية انتشار النار فى الحطب، وخلخلت- لذلك- أساليب علمية كانت مستقرة،

واستبدل بها الفكر الذى يلبس ظلما عباءة المعرفة، ولا يصمد فى وجـــه أى تحليل منطقى أو منهـــجى. وهكذا دارت العـــجلة دورة معاكسة، واشتدت المنافسة على الرحيل إلى الخليج، والبقاء ثمة أطول فترة ممكنة، وكثر الالتفاف- نتيجة لذلك- حول القواعد، واستخدمت الرجاءات والضغوط، ولانت النُّظُم، وأطلت الاستثناءات برأسها، وأصبحت هى بذاتها قواعد، فثمة المستثنون لأنهم يشغلون وظائف إدارية، وثمة جامعات برمتها مستثناة لاعتبارات «قومية»، ثم دخلت الاعتبارات الأسرية فى المجال، فاستثنى أولا- وعلى استحياء- من تحصل زوجته على إعارة فى الخارج، ثم أصبح ذلك قانونا، ثم بدأ الالتفاف على هذا وذاك؛ فتحول الحقيقى إلى وهمى، والواقع إلي أقاويل؛ وبدأنا نسمع عن «ادعاء» مناصب إدارية لا وجود لها، وعن عقود عمل للزوجات لا أصل لها. وأنت لا تستطيع بالطبع أن تثبت أو تنفى، ولكنك ترى بعينيك النزيف الموسمى من ضمور الهيئة التدريسية فى ناحية، والازدياد الموسمى المعاكس لزيادة أعداد الطلاب فى ناحية، وذلك كلما عقد امتحان الثانوية العامة (وهو يعقد كل عام)، وكلما بدأ موسم الإعارات (وهو يبدأ كل صيف).

هكذا تقلصت أعداد الهيئة التدريسية، وهكذا أصبحت القلة الباقية حاضرة بأجسادها، ولكن فكرها متربص بالخروج إلى حيث جمع المال، وأصبحت الكثرة الغائبة مستميتة في أن تطول مدة الغياب. والنتيجة أن عدد الهيئة التدريسية تناقص بشكل حاد، فاختلت النسبة المطلوبة من توفير «عدد كذا» من القائمين على التدريس «لكل كذا» من الطلاب، مما نسمع عنه من إحصائيات يجريها «البيداجوجيون» فى مجالات التعليم محليا وعالميا. وليست لدىّ، وأنا أكتب هذا الكلام، إحصائيات أعتمد عليها، ولكننى- وقد أطلعت أخيرا على إحصائية واردة من بعض جامعات العالم المعروفة تبين نسبة عدد الأساتذة إلى الطلاب- أقطع بأن ما كان موجودا فى دار العلوم، من مثيلتها حين كنت وكيلا، لا يمكن أن يحقق أى قدر ملائم من التأهيل العلمى. أقول هذا متجاهلا كل العناصر الأخرى اللازمة للتأهيل، مما أشرت إلى بعضه فيما سبق.

فى «دار العلوم» أقسام علمية على «الورق»، ولكن الواقع أن ما يدرس للطلاب إنما هو مجموعة مواد تقدمها هذه الأقسام «الشكلية» عبر سنوات أربع. والصراع مستمر، كلما فتح باب تطوير المناهج، على عدد الساعات التى ينبغى أن يعرضها كل

قسم، والغلبة عادة للقسم الذى يتمتع بأكثر أعضاء هيئة التدريس عددا، أو القسم الذى يكون العميد أحد أعضائه. وثمة مواد تدرس فى الكلية إلى جانب المواد الأصلية- العربية والإسلامية- كالإنجليزية، والعبرية، والفارسية، ولكن العناية بهذه المواد لم تؤخذ مأخذ الجد- حسبما تابعت وعايشت- فى يوم من الأيام. وأنا نفسى كنت واحدا من ضحايا الوضع البائس لدراسة هذه المواد؛ فقد «درست» العبرية، ولم يبق لدىّ منها شئ، و«درست» الإنجليزية، ولا تسل عن أميتى الكاملة فيها يوم وصلت إلى انجلترا !.

ويقضى علىّ الواجب أن أتحدث فى جلاء عن رأيى فى مستوى أداء هذه الهيئة التدريسية الضامرة، التى تعانى من شتى الضغوط. وقد أشرت إلى حلم التعلق من قبل الجميع بالإعارة قبل حدوثها، ومحاولة إطالتها قدر الإمكان إذا حدثت، وأشير هنا إلى تدنى الدخول المالية لأعضاء هذه الهيئة على نحو مُزْرٍ؛ مما يدفعهم إلى «الانحرافات» المختلفة ، و«تسويد» المذكرات الدراسية «والكتب الجامعية» ، وهذا خلق تجارة واسعة، نمت على هامشها نشاطات مشبوهة، تحمل نتائجها المحققة، من التدهور المعرفى على نحو مطرد. وأبسط ما ظهر من ملامح ذلك أن أصبحت المكتبة، مثلا،

ركناً معطلا فى الكلية، وأحسب أن ذلك صحيح فى كل الكليات، وفى كل الجامعات، كما أصبح نظام «المراجع» - ولا أتحدث عن «المصادر» - فى «خبر كان» -- وهذه عندى ذروة المأساة فى التعليم الجامعى .

ولقد كان من الممكن أن يُتغلب على كل هذه المعوقات، لو توفر القائمون على التعليم على تأهيل صحيح، ووازع داخلى، ورغبة فى تحسين الأداء الأكاديمى، لكن هذه المعوقات الداخلية هى التى تجعل الإصلاح متعذرا، ثم تأتى المعوقات الخارجية المشار إليها، فتتضافر معها، لتجعل الإصلاح مستحيلا! ولن أعوّل فى شئ مما أقول على السماع أو الاستنتاج، ولكنى أعوّل على ما جربته واقعا وعملا من موقعى، مسئولا عن شئون «التعليم والطلاب» ، «والدراسات العليا والبحوث» ، «والمكتبة»، «ورعاية الشباب»، وأسوق أمثلتى مما تعاملت معه بالفعل فى هذه المجالات جميعا.

لا تخضع دار العلوم لما يسمى «القبول الجغرافى» ؛ وذلك لأنها كانت لعهدى ليس لها نظير فى أى بقعة أخرى من أرض الوطن. وعلى ذلك كانت تقبل طلابا من جميع الأرجاء؛ مما طبعها بطابعها الخاص الذى يتجلى فى أن معظم طلابها من أهل الريف،

وقيعان المدن؛ فهم فقراء بالضرورة، يحتاجون- لاغترابهم، أو فقرهم، أو للأمرين معا- لأكبر عدد من الأماكن فى المدن الجامعية، كما يتجلى فى أن كثيرا منهم يضطرون للوصول إليها إلى السفر ساعات طويلة، قادمين من الأقاليم المجاورة للقاهرة. وهنا أصل إلى النقطة التى أريد الوصول إليها؛ فهذا الطالب الفقير المجهد، الذى يحتاج إلى رعاية خاصة فى تلقى المعرفة، قد يأتى إلى قاعة الدرس، بعد سفر طويل، فيجد «الأستاذ» غائبا، فإذا نّبهت - أنت المسئول - هذا «الأستاذ» إلى ما ينبغى عمله- بعد تكرر الغياب وعدم اعتبار طلابه- لا تجد عنده سوى الصلف، والمغالطة، وعبارات «أقدار الأساتذة» ، و«رعاية الزمالة» ، و«رفض التسلط الإدارى» - وما إلى ذلك. وهذا هو الذى يجعل الإصلاح أمرا مستحيلا! وقد يصل الحال بك أن تجد نفسك مضطرا للدفاع عن نفسك أمام الحملات الظالمة التى تؤلب الجماعة عليك . وعليك في هذه الحال أن تختار بين اثنتين: تقطيع الحبال، واللجوء إلى القانون المكتوب (وهو لا يسعفك فى معظم الأحوال، ولا يحقق نفعا!) ، أو التواطؤ (وليس كل إنسان مهيأ لذلك!).

يكون «الأستاذ» فى مكتبه، ولا يذهب لدروسه إذ تحين، أو

يستعير كتبا من المكتبة، ويرفض إعادتها بعد مرور الشهور والسنين، ويعلن أمام الجميع أنه لن يفعل ذلك إلا إذا قرر هو ذلك، فإذا استشعرت أنت مقدار الحيف والصلف، وفقدان معنى «الأستاذية» فى هذا الفعل، وجدت نفسك عاجزا عن فعل أى شئ أمام العادات المستقرة، وأمام «الحسابات» «والمواءمات» التى تحبط محاولاتك أولا بأول؛لأنك مجرد «وكيل»؛أى لست صاحب قرار!

كانت لى مشاجرات موسمية مع المسئولين عن المدن الجامعية، لمحاولاتى الدائبة إدخال طالبات «صعيديات» مغتربات إلى هذه المدن، وكنت أُتهم- فى ساعات الصفاء!- من قبل هؤلاء المسئولين بأننى من أصحاب «العصبية القبلية»، فكنت أرد على ذلك بأن هذا يشرفنى، وأننى أشفع بذلك شفاعة حسنة، أرجو أن يكون لى «نصيب» منها. لكن الأمر كان أحيانا يتجاوز حد الدعابة ليصل حد الأزمة، وذلك فى حالات حادة، كحالة الطالبة التى إما أن تسكن المدينة، أو تترك الكلية، وكحالة الطالبة التى دفعها أبوها إلى مكتبى ذات صباح، وأخبرنى أنه مقيم معها مع أقربائه منذ شهر حتى ضاقوا به، مقسما أنه إذا لم يحصل لها على قرار «اليوم» بتسكينها فى المدينة، فسيأخذها إلى قريته، ولن ترى التعليم بعد

ذلك. لقد تألمت لذلك كثيرا، وأجريت اتصالاتى الغاضبة، فلم يعدنى المسئول «الصغير» بشئ، فى انتظار قرار المسئول «الكبير»، وبقينا على ذلك حتى وقت العصر، فتركنى أبو الطالبة غاضبا، ولا أدرى حتى اليوم إن كانت ابنته قد دخلت المدينة، أوبَرَّ هو بقسمه، أو حصل على فتوى تجيز له الإبقاء على زوجته !.

يتهم طلاب دار العلوم بأنهم يظفرون بنصيب الأسد فى عدد الوجبات الساخنة التي توفرها المدينة الجامعية ظهر كل يوم. وقد سمعت رئيس الجامعة يعلق علي هذه الظاهرة- فيما فهمته على أنه سخرية!- على مسمع من جميع عمداء كليات الجامعة ووكلائها- قائلا: «طلبة دار العلوم- «الله يديهم الصحة»!- يستأثرون بنصف وجبات المدينة».أحرجتنى العبارة وأذتنى؛ أليس من حقهم الثابت أن يصل إليهم هذا «الفتات» ، مما يقدم على مائدة الوطن؟ قلت له بصوت هادئ: «إنهم فقراء، وهذا حقهم ، ثم اردفت: «وعلى العموم: «أنتم كرام، وهمّا يستاهلوا»! لم يعجبه منى لا هذا ولا ذاك، فبان فى وجهه الغضب، ولم يعلق! ولا أدرى حقا ما الذى كان علىّ أن أفعله لأظفر برضاه؛ هل أجلس صامتا؟ هل أدعو له بالسلامة، وطول العمر، كما كنت أسمع العمداء يدعون له؟ أو أفعل ماذا؟!

كانت المحبطات المثبطات كثيرة، لكننى كنت أعمل بهمة متصلة فى تصريف شئون العمل اليومية. وكنت أسعد إذا أرى مشكلة صغيرة تحل، كأن يخبرنى طالب محتاج أنه دخل المدينة الجامعية أخيرا بمسعى منى، فأصبح له بذلك سقف يأويه، ووجبة ساخنة تقيم أوده، أو أرى طلابا أو طالبات متحلقين حول الكتب فى قاعة المطالعة فى المكتبة، يقرءون (وكان هذا قليل الحدوث!). أما ما كان يؤلمنى أشد الألم فرؤيتهم يهيمون فى الطرقات الرطبة، والساحات الخارجية الضيقة، مفزّعين ومجهدين. وقد سعيت جهدى فى توفير مقاعد حجرية لهم، فى ساحة جانبية تفصل سور الكلية عن الطريق المطل على سكة حديد الصعيد . ومع أنها كانت- شكراً لقسم الشئون الهندسية فى الجامعة- أشبه بشواهد القبور، فقد وفرت الراحة أو بعض الراحة، للمتعبين، أو بعض المتعبين. ثم علمت أن الجامعة اجتاحت، بعد تركى الكلية، المكان كله، وأقامت عليه مبنى اسمنتيا! ولا أنسى أننى وفرت للطلاب والطالبات ركنا مشمسا، فى فجوة بين جناحين من أجنحة الكلية، ملأتها بالصحف اليومية- معارضة وقومية على السواء- وكنت أمرّ عليها، فأجدهم منكبّين على القراءة بكل أنفسهم، حتى إنهم كانوا لا يشعرون

بمروري! كان ذلك يبهجني، ويحزنني في أن: من الواضح أنهم لا يجدون ثمن الصحف (وهذا محزن!) ، ومن الواضح أنهم متعطشون إلى المعرفة حتى على مستوى معرفة الأخبار والحوادث (وهذا مبهج!)، ومن الواضح أنهم محتاجون إلى عناية مستمرة لا يلقونها! وأنا على يقين أن ذلك الركن قد تلاشى كذلك بتركي الكلية؛ ذلك لأنه ليس من تقاليد العمل فى بلدنا توارث رعاية الأشياء !.

هكذا مضى عليّ عام فى برنامجي الارتجاليّ الذى وضعته لنفسى لتحسين الأداء فى المهمة التى وكلت إليّ؛ دون أن أتلقى عونا على الإطلاق من أى أحد. ويؤسفنى القول إنه لم أجد فى مكتب الوكيل حين دخلت إلى الوظيفة ورقة واحدة تساعدنى على أداء عملى، ولا تطوع أحد بمد يد العون إليّ مدة بقائى. وهكذا كان عليّ أن أراجع مكاسبى خلال هذا العام، وكانت فرصتى الوحيدة لذلك خلال عودتى فى الطريق الطويل إلى منزلى حيث أسكن فى مصر الجديدة. كانت الطرق أهدأ مما هى عليه الآن، وذلك رغم الكبارى والأنفاق التى استحدثت، فكنت أمتلك فرصة للتأمل، وإعادة التفكير فيما حدث خلال اليوم، وكنت أحرص على تخصيص ذلك الوقت لتلك المهمة؛ وذلك لأننى كنت أعلم أننى إذا عدت إلى البيت لا

أبقى مستيقظا إلا لمدة أتناول فيها وجبتى اليومية الوحيدة، وأتفقد فيها الضرورى من أحوال الأسرة!.

ومن خلال مراجعتى تلك، تبين لى أن معظم منجزاتى اليومية ناشئة من الأمور التى تجد فى اليوم ذاته، وكان معنى ذلك أن فرصتى فى تحقيق أى إنجاز أكبر من هذا- من أفكار تحسين العمل التى فكرت فيها على مهل، وأمّلت فى أن أحققها طبقا لخطة واضحة- تتفلت من يدىّ دون أن أدرى، وعلى ذلك كان جهدى جهد الحب الضائع، وكان عملى يشبه حركة ساقية جحا. وقد أتى العام الثانى فى «الوكالة» بما رجّح لدى عدم جدوى المحاولة؛ فقد بدأت خيوط العمل تتجمع وتتفرق دون انتظام، وبدأت أحلل مفاهيم الكلمات التى وردت فى خطاب تعيينى وكيلا، فأجد البون بعيدا بين ما آمل فيه، وما يمكن تحقيقه. ولما كنت طول عمرى من المتشبثين بالمثال، فقد استقر فى وجدانى أن أيامى الباقية فى هذا المنصب محدودة. لقد وجدت الهوة تتسع بين الواقع والخيال ؛ فالواقع يتكون من مادة طلابية أتت رغم أنفها لتؤهل فى تخصص اللغة العربية والعلوم الإسلامية؛ وهى لا تمتلك أية قاعدة معرفية أو نفسية، أو اجتماعية ، تجعل منها خامة صالحة لتحقيق ما جاءت

من أجله. والقائمون على هذه المادة مشغولون بأمور أخرى، وليسوا- فى مجموعهم- مؤهلين نفسيا، أو معرفيا، أو اجتماعيا، للمهمة التي وجدوا من أجلها. وليؤذن لى، وأرجو ألا أتهم بالمبالغة فيما أقول- بأن أسأل: هل تسمى من يفصل «الدين» عن «العمل» الذى يتقاضى عليه راتبا، بحيث يصدر فى الخارج الفتاوى، ويدعى إماماً، ولا يحضر إلى دروسه،أو يحضر إليها ويضيع الوقت متحدثا عن أمجاده الخاصة، أو ثروته، مؤهلا نفسيا؟ وهل تسمى من يدرّس النحو بالعامية، أو ينتمى إلى قسم متخصص فى العروض العربى، ولا يستطيع أن يتبيّن البيت الشعرى الموزون من المكسور، مؤهلا معرفيا؟ وهل تسمى الهارب من شبح الفقر، والساعى للثراء السريع بكل الوسائل، مرتكبا فى سبيل ذلك «الوساطة»، والاستثناء، واللحاق «بعقد عمل» الزوجة، الصحيح أو المزيف، مؤهلا اجتماعيا؟ هذا هو الواقع الذى يعلمه جميع من عاصر الفترة التى أتحدث عنها، ولابد أن يشهد لصالح ما قلت (إذا أراد ألا يكتم الشهادة!). أما الخيال فهو تحقيق المعنى الصحيح لعبارات «التعليم»، «والطلاب»، «والبحوث» وما إلى ذلك مما كنت مسئولا عنه بحكم قرار تعيينى وكيلا!. ولم يكن خيالى جامحا، وإنما كان خيالا علميا؛

فقد تعلمت فى تلك المؤسسة ذاتها، وتعلمت فى مؤسسات أخرى فى بلاد متقدمة، ورأيت أنه يمكن بالإرادة البشرية العادية، ودون ادعاء لتحقيق المستحيلات، أن الوصول إلى مستوى معرفى مقبول أمر ممكن ، ولكنه كان فى الجو الذى أعمل فيه- نظرا لما وصفت، وبكل أسف- يدخل فى عداد المستحيل!!

أما طلاب «الدراسات العليا» فقد كنت أقول لهم؛ إذ أراهم يأتون إلى قاعات الدرس آخر النهار، مرهقين شبه نائمين، يحلمون بالدرجة التى تفتح لهم فرصة هنا أو هناك، إن البحث العلمى- أو البحث عن الحقيقة- يحتاج إلى فضل مالٍ، وفضل وقتٍ، وفضل جهدٍ، وكانوا هم يتلقون كلامى فى صمت المغلوب على أمره، و بابتسامات تثير الشفقة، ثم يمضون إلى حال سبيلهم. ومن هؤلاء مجموعة متفرغة لهذه المهمة هى مجموعة المعيدين (حملة الليسانس من أوائل الدفعات) والمدرسين المساعدين (حملة الماجستير) الذين يتقاضون رواتب (لم يعترضوا عليها!) ورضوا أن يكونوا منقطعين لتكملة مؤهلاتهم ، ليصبحوا أعضاء فى الهيئة التدريسية. ومنهم طائفة (وياللعجب!) التحقوا بزوجاتهم العاملات (حقا أو زعما!) فى الخليج، وتركوا مشرفيهم وراء ظهورهم ، وعوّلوا

على التأهيل بالمراسلة (ولا تظنن أنهم متفرغون للبحث حيث هم، فنحن لنا عقول، وإنما هم يعملون ثمة في وظائف «طول الوقت»). ولى مع هؤلاء بالذات قصة لا تخلو من عبرة؛ لذا أوردها هنا دون خروج عن السياق :

لاحظت أن معظم أفراد هذه المجموعة- ومكانهم الصحيح المكتبة أو التحلق حول مشرفيهم- لا يُروْن فى الكلية أصلا؛ فإذا جاءوا قضوا أوقاتهم فى الحجرات للثرثرة؛ فدعوتهم لاجتماع عام، نناقش فيه أحوالهم مناقشة صريحة مفتوحة، فجاءوا متوجّسين! وقد استقبلتهم استقبالا حسنا (ولم لا؟!) وتحدثت إليهم حديثا صريحا (وكانوا بدون استثناء قد درسوا على يدى)؛ فلم أخف عنهم قلقى، ولا اعتقادى بأن اختفاءهم عن كليتهم (وهم المتفرغون للبحث العلمى) فى نظرى أمر غير طبيعى. واقترحت عليهم أن يرتبوا لأنفسهم ساعات محددة يقضونها فى المكتبة، مبديا أتم الاستعداد لمساعدتهم على حل أية مشكلات قد تنشأ فى طريقهم، وتوسلت إليهم بالمواعظ العادية من أننا أبناء أمة واحدة، وكلية واحدة، ولنا هدف واحد .. الخ .

كنت أتحدث إليهم فى طمأنينة بالغة، وروح متفائلة عالية، لكن

رد فعلهم - شبه الجماعي- جاء مخيّبا لآمالي؛ فقد قاوموا اقتراحي، وأعطوني الإحساس بأنني أطلب منهم «خدمة شخصية»، وتسابقوا في الدفاع عن موقفهم في الغياب: قال قائل منهم: إننا نتغيب عن الكلية لأننا نكون مشغولين بالبحث والاطلاع في مكتبات أخرى تقدم لنا تسهيلات لا نجدها هنا. ولم أشأ أن أرد على ذلك القائل بأن كلامه لا دليل عليه، وأن القرائن تشير إلى عكس ذلك؛ فهي تقول إن معظمهم متأخر في الإنجاز، وإن السنوات التي تسمح بها له اللوائح للحصول على مؤهله توشك على النفاد، وإن مشرفيهم لم يتقدموا لأقسامهم بما يفيد أنهم يتقدمون في أبحاثهم. كذلك لم أشأ أن أصدمهم بما كان شائعا، ومترددا، من أن معظمهم يشتغلون «بالدروس الخصوصية» (وهو أمر محظور قانونا، ومعيب خلقا، ويكفي أنه يُفعل في الخفاء!). وقال قائل منهم (وكان متبجّحا!) : إن ما تطلبه منا نقيض الحرية الفكرية؛ فلم أزد في وجه هذا القول المتبجّح على أن قلت بهدوء: إن «للحرية» وجها آخر هو «الالتزام» وكنت أفكر، وأنا أستمع إلى ذلك المفهوم الجائر لمعنى الحرية، في المؤسسات التعليمية التي تربينا فيها هنا وهناك- في مجتمعات ليست أقل منا بحال في فهم وتقديس الحرية- والتي

ترعى النظم واللوائح، ولا تفرط فى أى قدر منها بحال. واعترانى الأسى فقلت لنفسى : هؤلاء هم « الشيبية» الذين سيصبحون أساتذة، والذين سيفرطون فى أداء واجباتهم، فإذا ذكرهم أحد بهذا التفريط حدثوه عن « أقدار الأساتذة»! ثم تصاعدت النبرة- من جانب بعضهم لا من جانبى- فتحدثوا قرب نهاية الاجتماع عن «شدة الإدارة»، فوجدت نفسى- وأنا الأستاذ الأكاديمى الذى درسوا عليه- أُخْتَزَل أمامهم فى حجم «رئيس مصلحة حكومية» !.

لم نصل إلى شئ، وملت أنا نحو نسيان الموضوع؛ فقد قلت ماعندى، وتقدمت باقتراح ورُفض، وانتهى الأمر. لكن الذى نكأ جرحى أن عاد إلىّ أحدهم بعد فترة وجيزة يخبرنى أنهم يتحدثون فى حجراتهم بأن «محمود الربيعى يشتم المعيدين» وينشر ذلك فى المجلات! وعدت إلى ما نشرته، فوجدتنى أقول- بعد كلام طويل أدحض فيه إصدار الأحكام العامة على أحمد شوقى :

«وكان من نتيجة ذلك كله أن حوكم شوقى محاكمة غير عادلة؛ لقد أعادوه إلى حجرة الدراسة، ولقنوه درسا فى كيفية كتابة الشعر. ولا تسل عما قيل فى مسرح شوقى، وكيف أنه «غنائى» وليس «دراميا»، ومن أنه قطع ممزقة، ومن أنه ضد المشاعر

الشعبية. لقد نظر إلى شوقى على أنه أقل من أن يفهم فى أصول فنه ما يمكن أن يفهمه «معيد» فى الجامعة يعد رسالة «ماجستير»! ومتى؟ فى زمن يعلم فيه الكافة من ذوى النظر المستوى الحقيقى لمثل هذه الرسائل، والمدى الحقيقى لعلم أصحابها». هذه هى العبارات التى قال عنها «تلاميذى» من المعيدين (إن صح ما أخبرنى به أحدهم!) إنها «شتم» لهم. وأنا أتركها للقارئ دون تعليق، لكن الذى أريد أن أعلق عليه هو حقيقة مستوى البحث العلمى في كليتى ، الذى خبرته بنفسى فوجدته قد تحول إلى «عبارة فارغة» تقال، ووسيلة «لأكل العيش» بوصف مشرفيه وفعل طلابه، ولم يبق منه إلا «البهرج» «والدعاية» «والعلاقات العامة» ؛ فإذاعرفنا أن البحث العلمى هو روح المعنى الجامعى ، عرفنا أن المعنى الجامعى أصبح الآن جسما بلا روح .

ولست أنكر أن مكتبة «دار العلوم» التى هى العامل الأول المساعد للباحثين- وإن كانت غنية من حيث ثروتها الأساسية- محتاجة إلى تزويد مستمر، وخدمة مكتبية عصرية. لكن عبء ذلك يقع فى أصله على الباحثين أنفسهم؛ فهم الذين ينبغى أن يعرفوا ما ينقصها فى شتى الجوانب، وهم الذين يستطيعون بضغطهم- إذا

أرادوا - أن يحسّنوا مستوى الخدمة فيها؛ فمن المعلوم أن الوظيفة تخلق العضو، وقد ضعفت المكتبة لأنه لم يعتن بها أصحابها، وصرفوا احتياجاتهم فى اتجاهات أخرى ؛ فكافأتهم هى على ذلك إهمالا بإهمال !

لقد تحدثت من قبل عن القسمة الجائرة فى المكان بين أصحابه الحقيقيين (الطلاب) ، ومن وجدوا لخدمتهم (الأساتذة، والإدارة، والبقية)، وأتحدث هنا عن قسمة جائرة أخرى فى طريقة توزيع الدروس على الطلاب فى يومهم الدراسى، وعامهم الدراسى: يعلق الجدول الدراسى للطلاب، مطلع كل عام، بعد إعداده فى جو من «المواءمات» تسمى «رغبات الأساتذة» ، وتكون النتيجة تحقيقا جزئيا لهذه الرغبات، وطغيانا واضحا على «رغبات» الطلاب، الذين لم يسألهم أحد!. ورغبات الأساتذة مبنية على أحوال؛ منها «اللحاق بالقطارات» ، ومنها «ضم الدروس» حتى يحشر الطلاب فى «علبة كعلب السردين»، ويتمكن الأستاذ من ترك الكلية مسرعا، ومنها وقوع الدروس فى «أوقات ميتة» حتى لا يهتم الطلاب بالحضور، ولا يرهق الأستاذ نفسه بالتدريس لأعداد كبيرة، أو يجدهم قد انصرفوا جميعا، فينصرف هو بدوره. وقد كنت أنا نفسى شاهد عيان على كل هذه الألاعيب!.

وماذا عن العام الدراسى نفسه؟ إنه يبدأ عادة متثائبا؛ متأخرا عن الموعد الذى يحدد له، كل عام، أسابيع، ثم يتآكل بفعل العطلات الرسمية، القديمة والمستحدثة، وبفعل عطلة منتصف العام، ثم بفعل عطلة طويلة جدا تسمى «الإعداد للامتحانات» ، ثم «الامتحانات» ، وذلك قبل أن تبدأ العطلة الصيفية «الحقيقية» وما أطولها! وأقرّر أن الأيام التي تبقى صافية لتلقى الدروس؛ مما يمكن أن يطلق عليه حقا «العام الدراسى»، لا يمكن أن تتجاوز، فى أكرم تقدير، ثلث أيام السنة !.

وأود أن أورد – بهذه المناسبة– قصة لا أراها منفصلة عن السياق :

بعد تركى دار العلوم بسنوات، عينت عضوا فى «المجالس القومية المتخصصة» ، وفى إحدى جلسات «مجلس التعليم» أثيرت مسألة «العام الدراسى»، فطلبت تعليقا قارنت فيه بين العام الدراسى» الملئ بالثقوب لدينا، مما أشرت إليه، ونظيره فى الجامعة الأمريكية التى أعمل بها، والذى يحسب بالأيام والأسابيع، لمدة عشرة أشهر كاملة. كنت أظن أننى بهذا قد أديت واجبى الوطنى، بتقديم خبرتى فى الموضوع المطروح، من واقع المؤسسة التى

أعمل بها، ونظامها الذى ينبغى أن يحتذى، على الأقل فى تلك الناحية التى يبدو أنه لا خلاف عليها. لكننى فوجئت بصوت يرتفع من جانب المنصة قائلا فى نبرة حادة هجومية: «من ذلك الذى يتهّجم على الجامعات المصرية»؟ وحين استفسرت عن موضع «التهجّم» لم أتلق إجابة، ولكن صاحب الملاحظة، وكان وزيرا سابقا للثقافة، ويشغل ناحية إشرافية على «المجالس»، أردف قائلا: «ثم إننى لم أسمع بهذا الاسم من قبل» ! دهشت أشد الدهشة، وعلقت بما اعتقدت أنه من حقى، وعبرت عن دهشتى، لأن الكلام فى جانب والتعليق فى جانب آخر. وحين شكوت لرئيس الجلسة بعد انفضاضها- وكان بدوره وزيرا سابقا للتعليم !- لم يزد على أن ذكر لى الفارق بيننا فى السن والصحة، وما إلى ذلك من عبارات مكرورة فى باب «تطييب الخاطر»، فعلمت - مرة أخرى- أن الاستمرار فى مثل هذه الأعمال ضرب من تضييع الوقت!.

هكذا كان عامى الأول فى «الوكالة» محبطا، لكن عامى الثانى كان أشد إحباطا. بدأت أحس أن «المهمة» لا تتناسب مع مؤهلاتى الذهنية والأكاديمية، كما أنها تجرى على النقيض من اتجاهاتى وقدراتى العملية، وكان معنى هذا عندى «عبثية» الاستمرار فى

الوظيفة. ذلك لأن الإصلاح في حدّه الأدنى كان فى نظرى يتطلب تضافر جميع الجهود ، لكن عوامل كثيرة، مما شرحت، كانت تقف فى طريق ذلك. وكانت «مركزية» القرار - وهى آفة بيروقراطية معروفة- تضع الجميع- فيما عدا صاحب القرار- بين صامت، ولامبال، ومسهم بشكل إيجابى فى إفساد أى إنجاز، وذلك بحكم العداء المتأصل «للسلطة» التى رمزها «الإدارة» ومصداقا لذلك ازورّ عنى ناس كانوا يبدون لى المودة قبل أن أكون وكيلا؛ ولما لم يكن من الممكن أن أستجدى مودتهم، فقد كنت أكتفى بالدهشة فيما بينى وبين نفسى، قائلا لها: إذا كانوا يودوننى حقا فى الماضى، فلماذا يزورّون عنى الآن عوض تقديم العون لى؟ وكان ما أطلب فيه العون لاخلاف عليه: أداء أفضل فى سير الدروس، وتطوير المناهج، وخطة البحث العلمى، وخدمة المكتبة، ورعاية الحالة الاجتماعية والثقافية للطلاب. كنت أعانى من أن كل من يدخل علىّ بطلب يقتضينى الإغضاء- بشكل أو آخر- عن النظم واللوائح، ولم يكن ذلك فى أصول تربيتى، أو تسمح به مبادئى على الإطلاق. ومرة طلب إلىّ نائب من نواب رئيس الجامعة أن أوافق على أمر رأيته مخالفا للوائح، فلما ذكرت له ذلك رد علىّ فى بساطة أذهلتنى : «ولو كان

موافقاً للّوائح كنت جيت لك ليه»؟! ولا تفسير لهذا الموقف الآن عندى سوى أنه كان «مجرّبا» ، وكنت «عديم التجربة» !.

وضعنى عامى الثانى فى «الوكالة» فى مشاكل نوعية كانت شديدة الوطأة على نفسى، وأختار منها هنا ما عجل بالفعل بجعلى أترك الوظيفة فى نهايته. كان لى فى «دار العلوم»- منذ كنت طالبا فى الخمسينيات من القرن الماضى- «أستاذ/صديق»، أكن له من صنوف المودة والإعجاب والاحترام، مازادته الأعوام عمقا ونضجا. وحين أصبحت «زميلا» له في هيئة التدريس آخانى، وشملنى بألوان عطفه وتشجيعه، وصار لى مع الأيام رائدا ومرشدا. وكنت تجاهه حساسا للغاية؛ شأنى مع من أحب، وكان هو - بطبيعته- كذلك حسّاسا للغاية. ولم يخطر ببالى قط أنه يرى منى إلا ما يراه «الشيخ» من «مريده»، من فنون الطاعة، والبر، والامتنان. ولاشك أنه كان يفرح لكل بادرة «نجابة» تبدو منى، ولكل «إنجاز» أحققه. وكان يزورنى فى بيتى المتواضع فى مصر الجديدة، خارجا بذلك عن طبيعته المتحفظة، فأعد ذلك منه تفضلا لا يجود به على غيرى. وأذكر أنه دخل علىّ ذات صباح دون موعد - وكنت معتكفا لوعكة خفيفة- يطلب رأيى فيما إذا كان يصح أن يستقيل من «وكالة»

الكلية، بسبب أن الجامعة تخطته وعينت عميدا لها غيره، أو يبقى فيها. وقد أشرت عليه بالبقاء ، وأبديت أسبابى ، ومع أنه خالفها واستقال، فإن مجرد تفكيره فى استشارتى، جعلنى أحس أن علاقتنا فريدة فى نوعها، وأن من شأنها أن تبقى على الأيام .

وحين عينت وكيلا فرح لذلك، ومضت أمورنا رخيّة إلى أقصى حد؛ أزوره فى مكتبه لأحتسى معه ما يجود به علىّ من ألوان الضيافة وألوان النصيحة، وأسّرى عنده همومى، وأبثه مخاوفى وألوان قلقى، وأشعر عنده بالأمن الذى كنت أحتاج إليه، والذى لم أكن أشعر به فى أى مكان آخر. ثم كان أن اختلفنا على ثلاث مسائل فى العمل، واحدة منها «إجرائية»، والثانية «أكاديمية» والثالثة «لغوية» :

كانت الأولى متعلقة بالنشر فى «حولية» الكلية، التى كنت مشرفا عليها بحكم وظيفتى، وكان هو رئيسا لأحد أقسام الكلية، ويعقد مع هيئة قسمه، وجمع من طلابه من حملة الدكتوراة، وممن هم دون ذلك، حلقة بحثية نشطة، تتمخض عن أبحاث مكتوبة تنتظر النشر. وكانت «الحولية» إحدى منافذ هذا النشر، وربما كانت المنفذ الوحيد أمام معظم هؤلاء الباحثين. لكن ملفات «الحولية»

كـانت مكتظة بأبحـاث من أقسـام أخرى تنتظر النشـر. فى هذا الصدد طلب منى «أستاذى/الصديق» أن أجنّب عددين من أعداد «الحولية» تخصصان لنشر أبحاث ندوة قسمه، ورأيت أنا أن ذلك متعذر، مشيرا إلى أن الكلية تضم سبعة أقسام، وفيها كثير من شباب الباحثين المتطلعين إلى الترقية عن طريق نشر أبحاثهم، «والحولية» نافذتهم للنشر، لأنها إحدى «الإصدارات» القليلة «المحكَّمة» التى تعترف بها لجان الترقيات. وطال بيننا النقاش، فعرضت عليه أن أتحمل مسئولية تخصيص «عدد» لندوة قسمه، و«عدد» لأبحاث بقية الأقسام. وكنت أحس أن هذه القسمة غير العادلة ستثير غضب الكثيرين، ولكننى غامرت– لأجل خاطره– بتحمل مسئولية عواقبها. لكننى فوجئت بأن هذا لم يرضه، وأصر على موقفه : «إمّا عددان ، وإلاّ فلا» ! لم يُلق بالا لحُجَجى، ولا راعى ما هو مؤكد من أن ذلك سيسبب لى حرجا كبيرا ، وأبدى أسبابا كنت مقتنعا أنه كان صادقا في جميعها. وبقى كل منا عند موقفه. وغضب منى !

وكانت الثانية متعلقة بأحد الأساتذة فى قسمه، ممن بلغوا سن التقاعد، وعينوا– بطلب منهم وموافقة من القسم– «أساتذة

متفرغين» فيه. وكانت اللوائح تنص على معاملة الأستاذ «المتفرغ» معاملة الأستاذ «العامل» ، فيما عدا تولى الوظائف الإدارية، كرئاسة القسم، ووكالة الكلية، وعمادة الكلية، وما أشبه. فلما وزّع القسم الدروس على أعضائه لم يخصصوا لهذا الأستاذ المتفرغ دروسا فى مرحلة «الليسانس»، وطلبوا إليه أن يقتصر تدريسه على «الدراسات العليا». ولما كنت مسئولا عن اعتماد الجدول الدراسى، فقد جاءنى هذا الأستاذ شاكيا، وأنهى إلىّ أن لديه رغبة- كان قد أبداها للقسم- فى التدريس فى مرحلة «الليسانس»، أسوة بزملائه «وتلاميذه» فيه ، ولكنهم لم يستجيبوا لها؛ وذكّرنى باللائحة التى أشرت إليها. صعدت- على استحياء- إلى غرفة «صديقى/الأستاذ» وشرحت له الأمر، فناقشنى على أساس أن دروس الليسانس تدرّ دخولا إضافية على شباب الهيئة التدريسية فى القسم هم فى أمس الحاجة إليها، فى حين أن صاحبنا- يقصد الأستاذ «المتفرغ»- «مليونير» ، لكننى قلت له : إن ذلك لا يمكن أن ينهض سببا حين يأتى الوقت الذى نضطر فيه إلى «الكتابة على الورق»؛ فمضى إلى القول بأن هذا الأستاذ لا يقدم من الفائدة للطلاب ما يقدمه لهم الشباب، فلم أبد مخالفة واضحة لذلك ، فأنهى الكلام قائلا: وإذن

ففيم الجدال؟ قلت له: لقد كان هذا الأستاذ متقاعدا، فسعى إليكم طالبا العودة من باب «المتفرغ» فوافقتم على ذلك، وكان بإمكانكم أن ترفضوا، فلم ترفضوا، وبموافقتكم أقررتم بأن القسم فى حاجة إليه. وقد أعدتموه بهذه الصفة (التفرغ)، وهذه الصفة تعطيه فى التدريس حق الأستاذ العامل، فبأى حق تنكرون عليه رغبته التى أبداها فيما هو حق له؟. هنا بدا حزينا، وغاضبا، ومليئا بخيبة الأمل فىّ، وقال عبارة واحدة لم يزد عليها «أنت تقول هذا يا محمود يا ربيعى؟!» وساد الصمت بيننا، حتى إذا أستأذنت فى الانصراف لم يستبقنى. وهبطت نازلا إلى مكتبى وأنا فى غاية الحزن، مستشعرا أن «العد التنازلى» قد بدأ بينى وبين فراق هذه «الوظيفة» المستحيلة. وكان السؤال الذى ملأ ساحة عقلى هو: هل أنت كاسب أو خاسر من بقائك «وكيلا» إذا كانت أحداث من هذا النوع ستتسارع على هذا النحو؟

وكانت الثالثة متصلة «بوقع» عبارة وردت من الجامعة وأنهيتها إلى الأقسام بنصها، وهى عبارة: «يرجى الرد على.... فى خلال أسبوعين» أغضبت العبارة «أستاذى/ الصديق» من بين سائر رؤساء الأقسام، ولم يقبل قولى إن العبارة ليست عبارتى،

وطالبنى بالاعتذار، فلم أر موضعا لخطأ أعتذر عنه، وبقى غاضبا مدة من الزمان، ثم ترضيته. ولكننى- مع ذلك- أحسست أن «شيئا ما» قد أصاب علاقتنا، فأدركت بذلك مدى الخسارة التى لحقت بى، جرّاء بقائى فى وظيفة الوكيل، وأصابنى نوع من الغم المتصل، زاد منه مرضه ثم انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وحين وسدته الثرى فى سفح جبل المقطم من ناحية البساتين، فاضت نفسى حسرات، واستشعرت حجم الرحمة التى تصبغها الحياة على الموتى، وحجم الشقاء الذى تدخره للأحياء، كما استشعرت حجم القسوة التى تنطوى عليها قلوب بعض الناس ممن شاركنى فى وداعه إلى مثواه الأخير.

وتسارعت أيامى نحو نهايتها فى «الوكالة»، وذلك بدخول السياسة إلى مجال العمل: دخل علىّ ضابط الحرس، الذى لم أكن استلطفه، ذات صباح، مذعورا (أو متظاهرا بالذعر- لا أدرى!) يخبرنى أن الطلاب يفترشون الأرض فى الباحة الجانبية، وأمامهم لوحات كتبت عليها عبارات مثيرة، تتضمن مطالب لهم وأشياء أخرى، فقلت له : لماذا لا تتحدث إلى العميد فى هذا الشأن؟ قال لى: إن العميد غير موجود، والأمر خطير. قلت له : سألقى نظرة

على المشهد ، وأرى ما سيكون . خرجت متباطئا إلى «مسرح الحدث» فوجدت بالفعل مجموعة قليلة من الطلاب، وأمامهم لوحات، وقد وقفت مجموعة قليلة أخرى من الطلاب يقرءون .

تحدثت إلى الطلاب حديثا هادئا، وطلبت إليهم طيّ اللوحات، محتجا بأن بقاءها يلفت أنظار مزيد من الطلاب فيتجمعون حولها، وهذا من شأنه أن يصيب اليوم الدراسى بالاضطراب. لم يستجب الطلاب لكلامى، فاقترحت عليهم أن يطووها، ويحضروا إلى مكتبى لنناقش الأمر فى هدوء حتى نصل إلى نتيجة ترضى الجميع، فوافقوا على ذلك، وأتوا إلى حجرة رعاية الشباب، وكانت مناقشة ممتدة متكافئة خرجنا منها بجملة من المطالب العادلة. ولما كان الوقت متأخرا فقد اتفقنا أن نعود فى الصباح لنحمل هذه المطالب المتفق عليها إلي الجامعة. ولا أنسى أن أذكر أننى حين علمت بوجود العميد فى مكتبه أنهيت إليه خبر المهمة التى أقوم بها، فلم يزد على أن تمنى لى التوفيق فيها .

عدت إلى مكتبى فى الصباح مبكرا، لكن الطلبة لم يجيئوا، ووجدت، بدلا منهم ، منشورات توزع، بأن الإدارة خدعت الطلاب، وأنهم مستمرون فى احتجاجاتهم، فأدركت أننى أنا الذى وقعت

ضحية مؤامرة من طلابى، وأن شيئا ما جرى بليل من وراء ظهرى، فساءنى ذلك إلى أقصى حد، وأصابتنى حالة من الاشمئزاز؛ إذ أحسست بوقوعى فى دائرة الألاعيب الصغيرة والمناورات.

لقد فشلت محادثاتى مع طلابى إذن، ولم أكن من جناة ذلك، ولكننى الآن اصطلى بناره. وعاد الطلاب يعلّقون لوحاتهم على الحوائط، ويقفون لحمايتها، ويحرضون الآخرين على التوقف لقراءتها عوض أن يمضوا إلى قاعات الدرس. ولم يرض ضميرى المهنى أن أقف متفرجا فى هذا المشهد المريب، الذى تديره مجموعة قليلة جدا من العناصر التى اتضح لى الآن أنها مدّربة، وأعمالها هادفة. وحز فى نفسى أن هذه الفئة المحترفة تقف فى سبيل نيل المجموعة المطحونة الكبرى، التى تأتى من أعماق الريف وقاع المدينة، نصيبا ضئيلا من التعليم، وتغازلها غزلا سياسيا رخيصا، فأصررت على أن تنزل «اللوحات» ، وشكّلوا هم «درعا» واقيا بأجسامهم لحمايتها، فخرجت إليهم، وكتبت أسماءهم، وأحلتهم إلى التحقيق، مخالفا فى ذلك رأى رئيس الجامعة، الذى أشار علىّ- حين استشرته- أن أتركهم وشأنهم !

وفى التحقيق قال الطلاب إننى هددتهم بأن أحضر لهم

«فرقة» من أقربائى «الصعايدة» لتأديبهم، وربما يكون هذا قد صدر منى على سبيل الدعابة، لكنه دلّنى على مدى «سذاجتى» ، «وخبث» طلابى. كذلك قال الطلاب إننى نعتهم بأنهم «قليلوالأدب» فقالت المحققة فى تفنيد ذلك إن هذه العبارة، التى تعد «شتما» إذا صدرت من شخص إلى شخص مكافئ يمكن أن تحمل فى سياق آخر- كسياقنا- توجيها تربويا. وهكذا جاءتنى طعنة إضافية- فى الوكالة- من طلابى الذين عاملونى بنوع من الخديعة لا وجود له فى قاموسى، وأثبتوا أنهم ليسوا محتاجين إلى ما عندى من «التربية والتعليم»!. لقد وفرّت لهم الحرية، وحاورتهم على «مائدة مستديرة» ، وكنت على استعداد للانضمام إليهم فى الجزء الذى اقتنعت بعدالته من مطالبهم، ولكن انظر كيف عاملونى؛ واعتبرونى جزءا من الإدارة، وهى- تقليديا- العدو الذى يتربص بهم، ويتربصون به. عندئذ فهمت معنى قول رئيس الجامعة: «اتركهم وشأنهم»؛ أى اتركهم حتى تجاوزوا الخط المسموح به، فيتعامل معهم الحرس أو البوليس!؛ وكان هذا شاقا جدا علىّ! كما فهمت معنى قول غيره لى فى مناسبة أخرى: إننى مسرف فى استخدام الديمقراطية، وقوله هو ذاته - على مسمع منى مرة- إنك قد تكون قادرا على المناقشة

والإقناع، ولكن غيرك غير قادر على ذلك؛ فهل تترك المسألة لقدرات الأفراد، وهى متفاوتة؟! وجاءنى زميل أستاذ فى كلية الآداب- سمعت فيما بعد أن الطلبة حملوه فى واحدة من مظاهراتهم على الأعناق- يطلب منى أن أعفو عن الطلاب، فلما قلت له إنهم أُدينوا بحكم اللوائح، وأننى مستعد إذا اعتذروا عن خطئهم الثابت ضممت جهدى إلى جهد من يريد العفو عنه، خرج من عندى، ولم يعد!

لقد أعطيت جهدى لجموع الطلاب، من الصباح إلى المساء، ولم أندم على ذلك، وذلك بالرغم من أننى تلقيت منهم مضايقات عدة، وعانيت من تصرفاتهم التى كنت أتحملها، لعلمى أنهم «الظالمون المظلومون» الذين لا يعرفون على وجه الدقة من يريد لهم الخير، ومن يريد أن يحقق عن طريقهم الخير لنفسه، ولا يميزون بين الصحيح والزائف، وينقصهم النظام، واستخدام البيئة المحيطة بهم على نحو سليم، وإذا اجتمعوا في أعداد كبيرة عجزوا عن توفير الحد الأدنى من الهدوء. وكنت أحكى لهم عن قاعات الموسيقى التي يحتشد الناس فيها بالآلاف، ومع ذلك يسودها سكون كسكون بيوت العبادة، فكانوا يهزون أكتافهم غير مبالين، وكأن غيرهم خلق لما لم يخلقوا هم له !.

وقد تمثل خذلان جماعات الطلاب لى فى وخزات خفيفة، لا يمكن أن تقاس بالطعنة المدربة من القلة المحترفة، التى أشرت إليها سلفا . وسأسوق حادثة من ذلك- على سبيل الذكرى: من المعروف أن الدولة توفر منحة عامة ، تعطى على نحو آلى، للطلاب الذين يرمى بهم حظهم إلى دراسة اللغة العربية (كانت على عهدى ستين جنيها في السنة)، لكن الروتين يماطل الطلاب، فلا يوصل إليهم حقوقهم في أوقاتها. وقد اشتكى إلىّ «جمهورهم» قبيل العيد، ورجونى أن أعمل على صرف حقوقهم لهم قبل انصرافهم حتى «يعيدوا» فتأثرت بذلك، وشدّدت النكير على الموظفين، فسهروا حتى أتوا «بشيك المنحة» فرحين، لكن الطلاب كانوا قد أعطوا لأنفسهم العطلة - قبل حلولها- وانصرفوا ، وحين عادوا متباطئين بعد العيد كان الروتين قد علّق النقود «أمانات» ؛ لأن أهلها لم يصرفوها، فدخلت مع الموظفين فى مناورات أخرى ليعيدوها، وكنت خجلا منهم جدا هذه المرة؛ لأن طلابى الذين حاربت من أجلهم هم الذين خذلونى !

وثمة مناوشات «خفيفة» أخرى جرت بينى وبين جمهرتهم؛ مما أعتبره كذلك، وخزات خفيفة. منها أن بعضهم كان يقطع

جلسات الامتحان، ويؤم إخوانه فى ركن من القاعة. وقد ناقشتهم أولا- وأنا الأزهرى القديم!- قائلا: إننا نبدأ الامتحان بعد صلاة الظهر، وننهيه قبل انقضاء وقت صلاة العصر، فكانوا يجادلون بأنهم يريدون الصلاة فى أول الوقت. لكننى كنت أرى ذلك حجة واهية، وأجبرتهم على أن من يترك مقعده عليه أن يترك القاعة إلى غير رجعة، فالتزموا! ومنها التخلف عن محاضرات الساعة العاشرة صباحا، بحجة صلاة الضحى في مسجد الكلية؛ فأمرت بإغلاق المسجد حتى وقت صلاة الظهر، ومنها أن بعض المنقبات من الطالبات كن يأبين كشف وجوههن- لأثبات هويتهن- إلا لإناث مثلهن. على أن بعضهن كن- يجاملننى، مجاملة كانت تغضبنى وتؤذينى؛ وذلك حين كنّ يسمحن لى- لا لغيرى من شباب المسئولين- أن أرى وجوههن! وواحدة منهن كانت ظريفة جدا حين زعمت أن بوجهها مرضا لا يمكن معه أن تسمح لأحد بأن يراه، وحين وكّلت بها إحدى الموظفات عادت لتخبرنى أن وجهها خال من أى أثر لمرض، ثم أردفت الموظفة قائلة: «إنه للحق وجه جميل جدا يا دكتور» ؛ فعرفت السبب فى الفتوى التى قدمت لها بإخفائه!.

كانت الجامعة- بعد أن تفشت «المذكرات» ، «والكتب

الجامعية» ، وانقضى عهد «المرجع» «والمكتبة» – قد شمرت عن سواعدها، وأعدت أسعارها، التى لا يجوز للأساتذة تجاوزها فى بيع «بضاعتهم» للطلاب. ومن الطبيعى أن يبدأ الالتفاف حول هذه الأسعار فور العمل بها، كما هى العادة. ولما كنت- بحكم موقعى- أحد الذين يجب عليهم الاستماع لشكوى الطلاب فى هذا الصدد، فقد أمطرونى بشكاواهم فى أمر تأخر «المذكرات» «والكتب» حتى قبيل انتهاء العام الدراسى، وفى أمر المبالغة فى الأسعار. وبعض تجاربى مع الأساتذة في هذه الناحية يدخل فى باب «المضحكات المبكيات» !.

يظل الأستاذ من هؤلاء «حابسا» الكتاب الذى ينبغى أن يقدمه لطلابه أول العام الدراسى حتى آخره، فإذا خاطبت قسمه فى هذا الشأن، فالديباجة معدة فى هجوم مضاد ، وتضامن مع الأستاذ على الطريقة الجاهلية، والتحدث- فى الاسطوانة المشروخة عن قدر الأساتذة؛ فأقول لنفسى- أى قدر للأستاذ إذا كان لا يؤدى عمله على نحو ملائم؟ وتشكّل لجان التصحيح الوهمية حتى يحصل الأساتذة على مكافأة ما صححوه فعلا، وحتى لا يطبق عليهم إجراء «جائر» بوضع سقف لما تصرف عنه مكافأة تصحيح، ويهدر بعدها

جهد الأستاذ فيصبح التصحيح مجانا!. وقد عانيت من ذلك فى قسمى- وكنت رئيسه - فجربت أن أقف ضد اللجان الوهمية، وقلت لزملائى! اذهبوا - عوضا عن ذلك- واحتجوا لدى مجلس الكلية، أو لدى الجامعة، لترفعوا هذا الظلم، فأبوا إلا أن يعالجوا القضية بالتزوير، وهددونى بأنهم سيقفون جميعا مصوتين ضدى فى مجلس القسم، وفعلوها !!

كان اعتماد نتيجة الطلاب فى العام الجامعى ١٩٨٣/١٩٨٤ آخر ما وضعت عليه توقيعى، ثم تقدمت باستقالتى من الوكالة لمن أصدر قرار تعيينى فيها، وجمعت أوراقى الخاصة من مكتب الوكيل، وصعدت إلى مكتبى فى رئاسة القسم، وأتذكر أننى كتبتها من «سطرين» فتلقيت عليها قبولا سريعا من صفحتين، كلها من «زخرف القول» ! وهكذا انزاح عبء ثقيل عن كاهلى. وحين أصبحت «الوكالة» وراء ظهرى، جاهدت لأنسى تلك الصفحة البائسة في كتاب حياتى، لكنها لم تَنْسَنى! فبعد قليل خلا منصب العميد فجاء رئيس الجامعة، مدجّجا بمعاونيه، وباشرالانتخابات بنفسه، حتى لا يحدث ما لا يريده، وهو أن ينتخبنى زملائى. ولاأشك أنه كان قلقا ومتوترا، لكن الله سلّم، فأخذ النتيجة التى لم أفز فيها بأعلى

الأصوات فى جيبه فرحا، وأرسل إلى الكلية قراره السريع- لعله فى ذات اليوم- بالعميد الجديد !.

وأصبح من كان يدخل علىّ بالأمس موطأ الجانب، وأتلقاه- كما ينبغى- مؤهِّلا ومسهِّلا- يستكثر علىّ أن أدلى برأيى في مجلس الكلية بالأسلوب الذى أريده، وبنبرة الصوت التي اختارها. وكان أصدقائى يؤكدون لى أن هذا طبيعى- في مصر وفى غيرها- وأن الناس يرون طبيعيا نفاق «المسئول» مادام مسئولا، كما يرون طبيعيا أن مضايقته واجبة إذا زالت عنه «المسئولية»! وكنت أقول لهم : لقد مارست مهمتى بالأسلوب ذاته طيلة سنتين، فما اعترض أحد بفكر بديل، أو قدّم أسلوبا آخر فى العمل، فعلام الأذى؟! وهكذا بدأت بالتدريج أحس بنوع من الغربة فى المعهد الذى دلفت إليه فى ريعان الشباب، وبلغت فيه ذروة كهولتى، وبدأت أسترجع بطل قصة «المعطف» لجوجول، التى كنت أدرسها لطلابى، يوم أن كنت شابا عائدا لتوى من بعثتى فى أوربا، مليئا بالأمل فى نفسى، وفى معهدى، وفى تلاميذى، وكيف أن الناس كانوا يحترمونه ما امتلك معطفه الجديد، فلما سُرق منه هذا المعطف آذوْه وأهانوه، فعرف- عندئذ- أن الإنسان منا، فى واقع الحياة، ليس أكثر كثيرا من

«معطف» جديد ! ومع تصاعد خشونة البشر تصاعد لدىّ الإحساس بالغربة بين أرجاء «الدار» ، وأصبحت فى انتظار «القشة التي تقصم ظهر البعير» – وقد أتت ! .

أخرجنا العميد الجديد من قاعات الدرس لاجتماع «غير عادى» لمجلس الكلية، فلما وجدت على جدول الأعمال «حالة عادية» تملكنى الغيظ ، فقلت إنه ينبغى التفرقة بين «الاجتماع العادى» ، «والاجتماع العاجل» ، و«الاجتماع الطارئ» ، وأن الأعضاء يتوقعون أن يجدوا فى جدول أعمال كل نوع ما يلائمه. وقلت أمّا أن يُخْرج الأساتذة من محاضراتهم ، ويدعون على عجل لأمر كهذا فهذا لا يليق! لم ينطق العميد ونطق عضو كان يعد فى المجتمع، وفى قنوات التليفزيون، داعية ومفتيا، قائلا : اخفض صوتك «يا فلان» امتثالا لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ «نظرت حولى فى دهشة، فأكمل لى الكلام بقوله : إن العميد في جلستنا هذه هو الذى يشغل موضع «النبى» (أو بما معناه). انتظرت أن يتكلم أحد من الأعضاء للرد على هذا الكلام الغريب، لكن أحدا لم ينطق، وكانوا حوالى العشرين ، فجمعت أوراقى، ونهضت، تاركا القاعة. وحين كنت أهبط الدرج عائدا من مكتبى،

فى طريقى إلى خارج الكلية، لقينى هذا الأستاذ مع آخر ، وقال لى الأستاذ الآخر : إن فلانا جاء يعتذر إليك ، فلم أرد بكلمة ، ومضيت لحال سبيلى ، عاقدا العزم على أن تكون تلك الحادثة خاتمة المطاف !.

وفى الفترة التى تلت ذلك فترت همتى، واعترانى ما يشبه الغثيان الدائم، وانحطت قواى المعنوية والجسدية، وأصبحت أحس بنوع من المهانة، كلما فكرت فى لحظة الضعف التى جعلتنى أقبل «الوكالة» ، وعزّ على أن آمالى، التى كانت يوما الارتقاء بالمستوى التعليمى والبحثى في كليتى، تتقلص إلى حد الاكتفاء بالدفاع عن كيانى الشخصى. كنت أوجه اللوم إلى نفسى فى صمت- ولكن على نحو دائم- لا على إخفاقى فى الإصلاح، بل على غفلتى التى جعلتنى أعتقد أن المستوى الذى يرضينى من الإصلاح ممكن فى ظل التدهور السريع الواضح الذى أصاب المجتمع فى شتى نواحيه.

ومع الأيام تضاءل ندمى، وتضاءلت أحزانى؛ فنشطت من جديد قدراتى الطبيعية على القراءة، والبحث، والكتابة، وحلّ محل الخمول لدىّ إحساس جديد بأن من أجلّ نعم الله علىّ أن زمامى

أصبح بيدى ، وأننى أصبحت حرا من أَسْر الرجاء والخشية. وفى تلك الفترة أكملت الجزء الأول من سيرتى الذاتية «فى الخمسين..» وكتبت أبحاثا ومقالات عزيزة على نفسى، وعلّلت روحى بقول المتنبى :

«وما أنا منهمو بالعيش فيهم»

وقوله :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألاّ تفارقهم فالراحلون همو

وأقنعت نفسى بأن هذه ليست «الدار» التى أحب أن أنتمى إليها، وأن «دار» الإنسان ليست حيطانا ودهاليز، وإنما هى بشر ومعان، فأين هم البشر الذين نشأت بينهم فيها، وأين هى المعانى التى كانت تمثلها؟ أين هى «الدار» التى جئت إليها من «الأزهر» ، شابا يافعا مليئا بالأمل فى تحصيل المعرفة، فقدَّرَتْ مواهبى، ورعتنى، ورأتنى جديرا بأن أكون مبعوثها إلى معاهد العلم فيما وراء البحار، ثم أفسحت لى مجالا، يليق بى وبها، بين أقرانى من طلاب البحث عن الحقيقة؟ لا فالدار التى عملت وكيلا لها هى دار الغربة، دار حفنة من الطلاب المسيّرين بتعليمات «تهريجية» من

خارجها، ودار الكتل الهائلة منهم التى تهيم على وجوهها فى غير هدى. وهى دار هيئة التدريس التى طلّق معظم أفرادها المعرفة، واشتغلوا بأغراض أخرى، وصمتت القلة القليلة منهم فلم تتضافر لتكوين سد يقف فى وجه الانهيار .

لقد ماتت «الدار» التى تختار طلابها «على الفرازة» من خيرة طلاب الأزهر- أيام كان الأزهر أزهرا! - وتصهرهم فى بوتقة واضحة المعالم، واضحة الأهداف، يقوم عليها أساتذة مؤهلون، لا يتطلعون إلى ماوراء الحدود إلا لمزيد من التأهيل، أو تقديم خدمة علمية، هم أهلها ، للغير. وماتت «دار» المواسم الثقافية المشهورة التى كانت تشهد خيرة شعراء البلد، ومفكريها- أيام كان فى البلد شعراء ومفكرون! وماتت دار الفكر المستنير الذى يضرب بجذوره فى آراء محمد عبده، وسعد زغلول، وطه حسين، وأحمد أمين، ويرعاه أساتذة أمثال غنيمى هلال وإبراهيم أنيس ، وتمام حسان، وعبد الرحمن أيوب، ومحمود قاسم،وضياء الريس، ومحمد حلمى، ومن قبلهم إبراهيم مصطفى، وإبراهيم سلامة، وأحمد الشايب !

ومع تداعى أركان الحلم بدأت تراودنى فكرة ترك «الدار» إلى غير رجعة، وكانت فكرتى فى ذلك ترتكز على أساس منطقى واضح

وبسيط : كيف يمكن أن يعيش الإنسان بين قوم يفصل بينهم وبينه صدع عميق فى الرؤية؟ إنهم يرون «واجبا» ما أراه أنا «مكروها» ، ويرون «حفاظا» ما أراه أنا «تبديدا»، وهم يدعون «التجويد» ويهملون ، وينصّبون أنفسهم قضاة وهم ظالمون ، ويتشدقون بأنهم حماة تراث هم به جاهلون !

وهكذا وجدت نفسى أفكر جدياً فى بدائل لحياتى : كان أمامى أن أعد سيرة حياتى، وأرسل بها إلى معاهد العلم التى أختارها، وكنت واثقا من أننى يمكن أن أحصل على وظيفة مناسبة بهذه الطريقة المعهودة، التى حصل بها عشرات ممن أعرف على مناصب أكاديمية ملائمة. لكننى أستبعدت هذا البديل لأسباب لا أرى مكانا للإفاضة فيها الآن. وكان أمامى أن أقتصر فى حياتى على القراءة والبحث والكتابة، وأن ألزم دارى، لكننى رأيت ذلك أبعد ما يكون عن خيالى فى تلك الفترة، وعن الحالة المادية والمعنوية التى كنت عليها. لقد كنت فى الرابعة والخمسين من عمرى، أتمتع بقدر وافر من الحيوية الفكرية والجسمانية، وكنت أحس أننى لا أزال بعيدا عن لحظة التوقف أو الانعزال. وكان أمامى أن أنضم إلى السعيد بدوى، وحمدى السكوت فى الجامعة الأمريكية، وهو

بديل طالما زيّناه لى. وقد فكرت ، وقرَّرت، واخترت هذا البديل، مودعا بيئتى القديمة بعد اثنين وثلاثين عاما، بمشاعر مختلطة من الحزن ، والتطلع، والإحساس بالهزيمة، والشعور بالاستعلاء. وكان شعورى بالحزن- بصفة خاصة- ينبع من شئ واحد هو أننى - بالمخالفة للقصة الفلكلورية التى أشرت إليها فى مطلع هذا الفصل - قد قبلت أن أدخل الوكالة !! .

الفصل الثانى

فى الجامعة الأمريكية

الجامعة الأمريكية فى القاهرة مؤسسة تعليمية قديمة، يعود تاريخ إنشائها إلى سنة ١٩١٩. نشأت نشأة تبشيرية استشراقية، نواتها مدرسة الدراسات الشرقية، ثم توسعت فأضافت «العلوم الإنسانية»، ثم أدخلت العلوم البحتة، وعلى ذلك فهى تدرس الآن الآداب، والتاريخ، والاجتماع، والإعلام، والاقتصاد، وإدارة الأعمال، والعلوم، والهندسة، وعلوم الكمبيوتر.

خضعت فى تاريخها للصعود والهبوط، حسب التقلبات السياسية فى العلاقات بين الحكومات المصرية والأمريكية، وبلغ بها ذلك حدا وضعت فيه مرة تحت الحراسة. وكان ينظر إليها حتى وقت قريب على أنها أدنى- من الناحية الأكاديمية- من الجامعات المصرية، لكن أسهمها ارتفعت بالتدريج فى هذه الناحية، نتيجة انفجار الأعداد فى التعليم الجامعى الرسمى، وضعف الإمكانات، ولأسباب أخرى، فأصبحت مطمح أنفس أولاد الطبقات الصاعدة فى المجتمع، التى تمتلك المال، أو القرار، أو كليهما. وقد دعاها هذا إلى التوسع فى القبول، كما دعاها إلى التوسع المكانى، وهى الآن

تبنى لنفسها حرما واسعا فى صحراء مصر الشرقية، ستنتقل إليه بحلول سنة ٢٠٠٧م. ولا يعكر على الجامعة الأمريكية صفوها سوى الحركة النشطة فى إنشاء الجامعات الأهلية المصرية، ثم دخول الجامعات الأجنبية فى هذا المجال : الفرنسية، والألمانية، والإنجليزية. غير أن الكثيرين يراهنون على بقائها مزدهرة، وبخاصة فى عصر «العولمة»، وعصر النفوذ الأمريكى المتزايد فى العالم، وبقاء أمريكا «دولة عظمى» وحيدة، بعد انهيار الاتحاد السوفييتى.

يتم شغل مناصب هيئة التدريس فى الجامعة الأمريكية عن طريق الإعلان عنها فى الصحف المحلية (المصرية والعربية) والعالمية (الأمريكية والأوربية) - هكذا كان الحال على الأيام التى دخلت فيها إليها، أما اليوم فهى تضيف إلى ذلك الإعلان فى موقعها على «الإنترنت». وحين قلت لأصدقائى فيها إننى «جاهز» الآن لترك «دار العلوم» طلبوا إلىّ ترقب الإعلان الموسمى الوشيك عن وظيفة الأستاذية فى الأدب العربى القديم، الصادر عن «مركز الدراسات العربية» وكانت قد خلت بوفاة محمد النويهى. ويضم مركز الدراسات العربية- على ذلك العهد- إلى جانب الأدب العربى، التاريخ الإسلامى، والعمارة الإسلامية، ومعهد اللغة العربية.

أُنْهى إلىّ بعد حين أن اسمى أصبح ثالث ثلاثة مرشحين للوظيفة، وأن علىّ أن أذهب لمقابلة شخصية مع العميد الأكاديمى للجامعة. وفى المقابلة تحدثت معه حديثا طويلا حميما عن نظم التعليم الجامعى فى الوطن العربى، وقارنت له بين النظام الفرنسى الذى عليه العمل فى الجزائر، والنظام الأمريكى الذى عليه العمل فى الكويت، ونظام السنوات الذى عليه العمل فى مصر، كما قارنت له ضاحكا بين طلابى الجزائريين الذى يكافحون فى ظروف مادية شاقة من أجل اللحاق بقطار المعرفة، ونظرائهم من الكويتيين الذين يأتى بعضهم إلى قاعات الدرس فى «رولز رويس». وفى مساء اليوم ذاته اتصل بى مدير مكتبه يطلب إلىّ استيفاء بعض البيانات اللازمة لتدرجى الوظيفى، حتى يمكن استكمال بنود العقد الذى سيوقع بينى وبين الجامعة، فأبديت دهشتى للسرعة التى تتم بها الأمور، وكنت قدّرت– وأنا القادم من روتين مستفحل– أن ذلك سيستغرق أسابيع أو شهورا ! كان آخر مرتب تقاضيته من دار العلوم مائتان وأربعون جنيها شهريا، وكان عقدى الذى ابتدأت به فى الجامعة الأمريكية، محسوبا بالسنة، ستة عشر ألف جنيه، وثمانية آلاف دولار .

ثمة أوجه شبه كثيرة بين نظام التعليم في الجامعة الأمريكية – وهو ما يطلق عليه نظام التعليم الحر LIBERAL EDUCATION وبين نظام «شيخ العمود» في الأزهر القديم ؛ إذ يختار الطلاب موادهم ومدرسيهم وأوقاتهم، ويحصلون على «إجازتهم» بتحقيق درجاتهم في المواد التي درسوها ، محسوبة بساعات معتمدة تقدر لكل مادة. ويتراوح عدد الطلاب في قاعة الدرس– حسب نوع المادة– بين عشرة وأربعين، ويقسم العام الدراسي إلى فصلين دراسيين أحدهما للخريف (سبتمبر/ديسمبر) والثاني للربيع (فبراير/مايو) ، وثمة فصل إضافيّ، يأتي إليه الطلاب– إن شاءوا– ويدّرس فيه الأساتذة– إن شاءوا– (يونيو/يوليو)، هو الفصل الصيفي. ولا معِّقب على الأستاذ في اختيار المادة التي يعرضها، وتحديد واجبات الطلاب، وطريقة أدائها. فإذا انتهى الفصل الدراسي قدم الأستاذ نتيجة طلابه إلى إدارة التسجيل في الجامعة. ومعنى هذا أن الجامعة الأمريكية لا تعرف نظام «الكنترول» المعمول به في الجامعات المصرية، والذي يلتهم وقتا كبيرا من الأسابيع التي ينبغي أن تكون من نصيب الدروس. وثمة اختبارات يجتازها الطالب الداخل إلى الجامعة– حسب الشهادة الحاصل عليها– في اللغتين العربية والإنجليزية؛ فإذا لم تسعفه عربيّته دخل أولا إلى

«معهد اللغة العربية» حتى يصل إلى مستوى ملائم فيها، وإذا لم تسعفه انجليزيته دخل أولا إلى «معهد اللغة الإنجليزية» حتى تسعفه انجليزيته، على أنه ثمة مواد تمهيدية «إجبارية» على الطلاب جميعا أن يدرسوها قبل تحديد تخصصاتهم العلمية، منها «الأدب العربى»، «والمجتمع العربى» ، «وطريقة التفكير العلمى». ويتفاخر النظام الأمريكى بهذا النوع من «التكوين الإنسانى» العام قبل الانشعاب فى مواد «إنسانية» أو «علمية»، ويعتبره حجر الزاوية فى نظامه «التعليمى الحر»، ويسمى هذه المرحلة «لب المقرر»CORE CURRICULUM هكذا يشبه هذا التعليم نظام الأزهر القديم – كما قلت– وإن لبس شارة العصر، وهو يوفر الوقت، كما يقوم على «الشفافية» لا «السرية» ؛ فيستطيع الطالب أن يطلع على وثيقة إجابته بعد تقديرها، وأن يناقش أستاذه فى هذا التقدير؛ ومن شأن هذا أن يرسى الثقة بين الأستاذ وطالبه. وعيبه الوحيد أنه قد يفرغ من مضمونه فى جو العزوف عن المعرفة الذى نعيشه، ولكنه إذا أحسن استخدامه يمكن أن يحقق نتائج باهرة. لكن آفة التخفف من أداء الواجبات، وضعف التعليم العام، مما يفقد القدرة على النظر والتحليل والمقارنة والاستنتاج، آفة من آفات العصر، وبالتالى فهى آفة هذا النظام ، وكل نظام !

كان عدد طلاب الجامعة الأمريكية حين دخلت إليها حوالى ثلاثة آلاف طالب، وهو الآن - بعد سبعة عشر عاما من دخولى إليها- حوالى خمسة آلاف، ويعد ذلك انفجارا فى العدد، سببه الإقبال المتزايد على الجامعة، نتيجة لارتفاع أسهمها فى ظل نمو سمعتها بأنها توفر فرصة أفضل فى الوظائف، ونتيجة لانفتاح شهية القائمين عليها فى التوسع وزيادة الرسوم التعليمية. أما عدد هيئة التدريس فى الجامعة فقد يبلغ المائتين، قرابة نصفهم من المصريين، وقرابة نصفهم من الأمريكان، ويبقى حوالى عشرة فى المائة منهم للجنسيات الأخرى، وفيها أوربيون وهنود وجنسيات أخرى كثيرة.

تتوزع واجبات عضو هيئة التدريس فى الجامعة بين التدريس وهو «قدس الأقداس» ، والبحث العلمى، وهو «قدس أقداس» آخر، والعمل فى لجان الجامعة المختلفة، ثم مشاركة الطلاب فى أنشطتهم . وتقوم أعمالهم في أقسامهم من قبل طلابهم، فيبدون رأيهم فى المواد التى يدرسونها، وفى الأساتذة القائمين عليها، دون أن يذكروا أسماءهم ، وللأستاذ أن يطلع على آرائهم لكن بعد أن يقوم بتسليم نتائجهم إلى مسجل الجامعة. وحين يحل موعد تجديد

عقود الأساتذة من غير المثبتين، أو ترقيتهم، تؤخذ مستويات أدائهم وواجباتهم المشار إليها جميعا بعين الاعتبار.

دخلت إلى الجامعة خريف عام ١٩٨٦، وكانت تحيل أعضاء هيئتها التدريسية إلى التقاعد فى سن الستين؛ لذا فقد قدرت أن أمضى فيها أربع سنوات هادئة، وانصرف إلى « التقاعد». وقد عملت فيها بجد فى التدريس والبحث وعمل اللجان، أما النشاط الطلابى فلم يكن واضحا لى، ولا أحسست أننى يمكن أن أقدم فيه جهدا ذا بال. وكان العمل فى اللجان هو الذى جذبنى حقيقة؛ إذ كان جديدا علىّ، أما التدريس والبحث فما توانيت عنهما قط منذ دخولى إلى العالم الأكاديمى سنة ١٩٦٥. كانت اللجان تشكَّل سنويا على مستوى الأقسام، وعلى مستوى الجامعة، وكانت تقوم بكل شئ تقريبا، وقد عملت فيها جميعا من أدنى المستويات، وكانت لجنة المنح فى القسم، إلى أعلى المستويات، وكان المجلس الأكاديمى للجامعة. وقد اكتسبت من عملى فى تلك اللجان خبرة فى النقاش، والبرهنة، وألفة اللهجة الأمريكية. وكانت المناقشات الحرة، والشفافية (النسبية)، والدقة فى المواعيد، هى التى تحبب إلىّ العمل فى تلك المجالات، كما كان الفصل بين ماهو «ذاتى» وما هو

«موضوعى»- وهو متحقق إلى حد كبير- يسبب لى قدرا كبيرا من الراحة، إذا قسته بما تركته ورائى فى «دار العلوم».

ولا أقول مطلقا إن الأمور فى الجامعة الأمريكية تجرى دائما على ميزان العدل والقسطاس؛ فثمة «ميل» هنا وهناك، للمشارب الخاصة، بل وللتعصب، والهوى. لكن الذى لاعم طبعى فى العمل هو الإحساس بعدم «المركزية»، وتحقق ثمرة العمل؛ مما يقلل من درجة الإحباط التى كنت قد دخلت بها إلى الجامعة ؛ مما وصفته آخر الفصل السابق. وفى السنوات الأربع التى انقضت بين تركى «دار العلوم» وبلوغى سن التقاعد المفترض، كتبت أبحاثا ودراسات، كنت أتوق إلى كتابتها، وذلك فى جو الهدوء الذهنى الذى تحقق لى، وبفضل مكتبة الجامعة، وخدمتها الملائمة، التى كانت تعيد لى ذكرياتى فى مكتبة جامعة لندن، والمتحف البريطانى.

وحدث أن أبدى قسم الدراسات العربية الذى كنت أعمل فيه رغبة فى استمرارى فى العمل بعد الستين، فبقيت فيه عاما امتد إلى ثلاثة أعوام. وحين بلغت الثالثة والستين حدث أن تغير القانون الأمريكى المتعلق بسن التقاعد فَأطْلَق هذه السن، محتجا بأن التفرقة بين الناس بحسب أعمارهم، كالتفرقة بينهم بحسب ألوانهم

أو أعراقهم أو أنواعهم، يدخل فى باب «التفرقة العنصرية». عند ذلك كان السعيد بدوى يوشك أن يصل إلى الخامسة والستين، فبدأت الجامعة معه محاولات لإحالته إلى التقاعد، بحجة أنه مصرى وكان ذلك بداية لمعركة شهيرة بين إدارة الجامعة والأساتذة المصريين.

اعترض السعيد على طلب الجامعة تركه العمل، محتجا بأنه دخل إليها بإعلان عام كان من الممكن نظريا أن يُدْخِل بدلا منه أستاذا أمريكيا، وإذن فبأى حق كان سيبقى هذا الأستاذ الأمريكى عاملا طبقا للقانون، ويطلب إليه هو - وهو المساوى له فى الاعتبار- أن يترك العمل؟ وكانت حجة الجامعة أن هذا القانون أمريكى وهو لذا يطبق على الأمريكان فحسب. واشتد الجدل، واسترشدنا برأى بعض المحامين المصريين، واتسعت الدائرة باقتراب بعض الأساتذة الآخرين من الخامسة والستين، وهى السن التى أعلنت الإدارة أنها لن تبقى أحدا من المصريين بعدها، وأثير الموضوع فى «مجلس الأوصياء»، وهو أعلى سلطة فى إدارة الجامعة، وعلا اللغط والضجيج، ودخل كثير من أعضاء هيئة التدريس من المصريين الشبان إلى الحلبة متضامنين، وبدا واضحا أن المواجهة بين الإدارة وبين المصريين من أعضاء هيئة

التدريس المثبتين آتية لاريب فيها. وبدأنا العمل مع محام مصرى، له مكتب فى القاهرة، وآخر فى أمريكا، ولوّحنا بدخول المحكمة، وقانون العمل المصرى، ودارت عجلة التقاضى، فطالبنا بالمساواة مع زملائنا الأمريكان فى مسألتى سن التقاعد والمرتبات. ولا أريد أن أدخل فى تفصيلات مملة عن مراحل سير القضية، لكننى أود الإشارة إلى شئ أراه جديرا بالإشارة فى مراحل تطور الموضوع؛ فقد أعددنا- نحن المصريين- مطلبا من بندين طالبنا فيه الإدارة بوجوب المساواة فى الناحيتين «السِّنِّية»، «والمالية» فرأيت بعينى توقيع أحد أعضاء قسمى من المصريين بالموافقة على البند الثانى ورفض الأول، وكان معنى هذا عندى أن هذا الشخص يفّضل أن يرانى وأمثالى، ممن اقتربوا من سن التقاعد، وقد غابت وجوهنا، على أن يتمتع هذا الشخص نفسه بعدم الإحالة إلى التقاعد مدى حياته!

دخلت القضية مرحلة الإجراءات التمهيدية، وبعد جولة أو اثنتين، حدث تطور مفاجئ لم يستطع أحد شرحه حتى الآن، وهو أن جاء رئيس مجلس الأوصياء فجأة إلى القاهرة، وأعلن للهيئة التدريسية، بصورة درامية، أن بند الإحالة إلى التقاعد ببلوغ سن معينة قد ألغى من لائحة العمل، وبذلك يمكن للجميع- من كل

الجنسيات - أن يظلوا فى العمل ما شاءوا أن يظلوا فيه، ومادامو قادرين عليه. ولا أريد أن أدخل فى «التداعيات» التى نتجت عن هذا القرار، أو توابعه، وإنما أردت فحسب أن أقدم تفسيرا لبقائى أستاذا عاملا فى الجامعة الأمريكية حتى هذه اللحظة التى تجاوزت فيها سن السبعين.

تتضمن لائحة العمل فى الجامعة أن كل من يقضى سنوات ستة فى العمل المتواصل من بين الأساتذة المثبتين، له أن يطلب قضاء السنة السابعة فى أى مكان يشاء، لينجز عملا متصلا بحياته الأكاديمية. وقد تمتعت بهذه الميزة مرتين، مدة عملى فى الجامعة، مرة سنة ١٩٩٣، وأخرى سنة ٢٠٠٠، وقضيت الفترة فى المرتين فى انجلترا؛البلد التى أكملت فيه تأهيلى الأكاديمى، وقضيت فيه أحلى أيام شبابى. وأود هنا أن أتحدث عن هاتين المرتين بالتفصيل:

كان وصولنا «الثانى» إلى لندن فى الخريف، فأعاد ذلك إلى خيالى ذكرى وصولنا «الأول» خريف ١٩٦٠ إليها، وكنا حديثى عهد بالزواج؛ نلتصق بغراء الخوف، ونتحسس طريقنا إلى عالم مجهول تماما. وقد وصفت رحلتنا الأولى هذه فى الجزء الأول من سيرتى الذاتية: «فى الخمسين عرفت طريقى» فلا أرى حاجة إلى إعادة ذلك

هنا. لكننى أريد أن أقول هنا إنه، فيما عدا رعشة الذكريات هذه، كان الأمر- من شتى وجوهه- مختلفا. كان يفصل بين الرحلتين ثلاثة وثلاثون عاما، وكنا قد تركنا لندن شبانا، ونحن نعود إليها الآن كهولا. خلفنا مى وأمين وراءنا، وقد أصبحا شابين خريجين، ولكل منهما أسرة، وعدنا- كما بدأنا- زوجين اثنين تلفهما الطمأنينة، ويّطرِحان كثيرا من الإحساس بالمسئولية الأسرية، ويتمتعان بقدر من الخبرة فى التنقل، ويحسان بالثقة فى نزول أرض معهودة، لا يمكن أن يضلا فيها الطريق، وبالأمل فى أن يحققا بالمعيشة الثانية فى ربوع الذكريات مزيجاً من المتعة والفائدة.

صادف وصولنا أول رمضان، وكانت السماء رمادية، والبرد لاذعا، والنظام المعهود سائدا، و«نيل» - ابن محمد عبد الحليم- فى انتظارنا بسيارة والده- على باب المطار. ومحمد عبد الحليم- لمن لا يعرفه- «أزهرى درعمى شرقاوى»، ذهب فى بعثة حكومية إلى «كمبردج» أوائل الستينيات من القرن الماضى، واتخذها دار إقامة، ثم انتقل إلى لندن فأسس لنفسه مكانا ومكانة، وحقق اسما فى مجال الدراسات الإسلامية، فأصبح مكتبه وبيته ملتقى كثير من زوار لندن من طلاب المعرفة. حين وصلنا إلى دارهم فى شمال لندن، وقد انكسر النهار ، أعدت لنا «لوزيتا» قدحين من الشاى،

مدركة، فى سماحة، أننا على سفر. وما أن ارتاحت أجسادنا فى دفء الداخل حتى أهل علينا «عبد الحليم» عائدا من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية التى يرأس فيها- إلى جانب الأستاذية- مركز الدراسات الإسلامية. وفى الأصيل أشرفنا معه على إنهاء عقود الشقة التى استأجرها لنا فى «فنشلى» - وكانت ملائمة وتقع فى جوار أخضر نظيف- وعدنا لتناول الإفطار فى منزله، فتمتعنا بضيافة زوجته الكريمة . وحين أقلنا مرة أخرى بسيارته فى الليل لنقضى أول ليلة فى بيتنا، وكان قد تكفل بكل ما لزمه من تكاليف، ذكرت له قول المتنبى :

أسير إلى إقطاعه فى ركابه   على سرجه من داره بحسامه

فتذوق الشعر على مهل، وهز رأسه مجاملا كأنه يستمع إليه لأول مرة، وارتاحت أساريره، وعلق بما دلّنى على أريحية نفس تهتز للمعروف، وتحقق قول القائل : «كأنك تعطيه الذى أنت سائله». لقد كانت إقامتنا سعيدة فى لندن بفضله، وبفضل ما أسبغته علينا زوجته من كرم !

من أجمل الأشياء أن تعود لتعيش فى جو معبّأ بذكريات قديمة، بعيدا عن شبح «التقشف الطلابى»، وحُبْسَة اللسان»، و«القلق

الدراسى» ، وقد أصبح عندى «كارت ممغنط» لاجتياز بوابة مكتبة الجامعة، وثان لاجتياز بوابة كليتى القديمة «مدرسة الدراسات الشرقية..» كنت أسكن على مسافة خطوات من محطة «مترو الأنفاق»، وأستطيع أن أضبط المسافة بالدقيقة بين خروجى من عتبة البيت، وعبورى بوابة هذه المكتبة أو تلك، وانضبطت ساعتى البيولوجية مع ساعة يدى، وساعة الميدان، وساعة «بج بن»، فدخلت بذلك فى نسق إيقاعى بديع مع المدينة، يلائم طبعى، وترتاح إليه نفسى، ويعوّضنى عن ضجيج المدينة العشوائية الذى خلفته ورائى.

يبهرنى نظام المكتبات المفتوحة الأرفف، التى تعرض عليك نفسها فى سخاء، وتمكنك من التجول فى أركانها بحرّية وتؤدة، فتخرج فى نهاية اليوم «بصيد» أو «صيدين» ثم تعود للمطاردة مع صباح اليوم التالى! ماذا كنت أطارد على وجه اليقين؟ لقد كنت أطارد شعورا غامضا فى الرغبة عن الابتعاد عن شبح الجهل، والاقتراب من عالم المعرفة، فى فرع عشقته، ونذرت له حياتى، وهو «النقد الأدبى». وقد اكتشفت أن ما أنجز فيه فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضى مذهل حقا! ماتت اتجاهات، وولدت اتجاهات، وأعيدت الروح إلى اتجاهات، وبقى جوهر الحقيقة– برغم كل ذلك– متألقا لا يموت!.

بقيت اقتنص «الشوارد» من الغرب والشرق، مما تدفع به المطابع فى سخاء، فرأيت كيف تتعايش أنواع الرؤية النقدية، وكيف تتقاطع، وكيف تتعارك، وكيف تتزاوج فتسمح بميلاد نسق جديد. رأيت كيف تنتعش نظرية «المحاكاة» الإغريقية، تحت اسم جديد هو «المحاكاة الجديدة»، ورأيت كيف تغير «السيكولوجية» جلدها بمغازلة اليسار، وكيف يمتزج السيكولوجي بالسوسيولوجي، والأنثروبولوجي، وكيف تتضام فروع المعرفة التى كانت متناثرة لتكون «صميما» هو «النقد الثقافى»، ثم كيف تنفجر مصطلحات متولدة من معارف مستقرة، لتصبح فى بؤرة الضوء، كالبنيوية، والتفكيكية، والحداثة، والنقد النسوى، وما بعد الحداثة، ومابعد الكولونيالية وما أشبه.

كانت الساحة المعرفية صاخبة، وكنت أصفّى هذا الصخب على مهل، واستصفى لنفسى منه ما أتمثله، بعيدا عن الرغبة والرهبة، والعزوف والانحياز. وقد جمعت من كل ذلك مادة واسعة خلال إقامتى فى لندن، وعكفت على تحليلها من جوانبها الموضوعية، فتكون عندى بحث نظرى طويل بعنوان «مداخل معاصرة لدراسة النص الأدبى». وكانت مجلة «عالم المعرفة»

الكويتية قد دعتنى لأن أكون «المحرر الضيف» لأحد أعدادها ، فقبلت المهمة مسرورا، وقد انحصر دورى فى اختيار مقالات العدد، وفحصها، وتنسيقها، والإسهام بافتتاحية له، كانت هذا البحث. وحين أعدت نشر هذا البحث فى كتاب لى بعنوان « من أوراقى النقدية»، لامنى السعيد بدوى على هذا العنوان الفاتر الذى «سيعطل سوق» الكتاب، وقال لى : لماذا لم تجعل عنوانه «مداخل معاصرة لدراسة النص الأدبى» وصدق السعيد؛ فشتان ما بين العنوانين– بالطبع– فى لفت نظر القارئ، لكننى كنت فى اختيارى العنوان الأول أستجيب لعوامل «غامضة» فى نفسى، جعلتنى أختار ما اخترت. وعلى كل حال فقد عوقب الكتاب فعلا، فلم يحظ بالتفات يذكر. لكننى للحق أقول إن كتبى كلها لم تحظ بالتفات يذكر، وذلك لأننى أكتبها وأنساها، كما أخبرنى زميل لى يقف خلف كتبه، ليحميها ويسوِّقها. كانت عبارته لى: عيبك يافلان أنك – «مثلى»– لا تسوّق كتبك!

لم يزحزحنى تقلب المشهد النقدى عن الطريق الذى اعتقدت فى صحته، وهو منهج «النقد الجديد»، الذى يعكف على التحليل المستقصى للنص الأدبى. وهذا المنهج يوحّد بين وجهى العملة

الواحدة من النقد والإبداع، ويغرق كل الإغراق فى المادة الأولية للأدب، وهى النصوص. كذلك لاءم هذا النهج ثقافتى الأم، وطبيعتى الشخصية، التى ترتاح إلى العيش فى أعماق النص، والسباحة الحرة فى أعماقه، وتتجافى عن النظريات المعدة، وبخاصة منها ما كان فجًا مستوردا. إننى من المؤمنين بوجوب الاستفادة مما لدى الآخر، لكننى تجاوزت- فيما أرجو- مرحلة الانبهار بما لدى الآخر، أو الفناء فيه. ذلك شئ تنكره الفطرة، كما تنكره الفكرة المنطقية الموضوعية- أن يترك الإنسان نفسه مفتوحا لهيمنة الآخر، ومحو هويته الثقافية. وكيف يمكن أن يكون ذلك مقبولا أو مبررا لدى أحد؟ أما أنا فلا أرى بديلا لموقفى فى هذا الجانب؛ وهو أن خدمة الواقع الخاص تأتى أولا، وكل مجلوب من الخارج ينبغى أن يكون فى خدمة ذلك. والواقع الخاص بالطبع يقبل ما يتلاءم مع طبيعته، ويرفض ماعدا ذلك؟ فما قبله كان مطلوبا، لأنه سيصبح فى هذه الحالة جزءا منه، وما لم يقبله ينبغى إلا يفرض عليه، بل ينبغى عدم إضاعة الوقت أصلا فى عرضه عليه؛ وذلك مهما تعلل ذلك بالمجلوبات وبريقها من «الانفتاح الثقافى»، أو «قبول الآخر»، أو «الاستجابة للعصر». وما فائدة زرع جسم غريب فى جسد سيلفظه

فى نهاية الأمر؟ هذا ما أراه، وقد بقيت عنده لم أغيره، حتى لو جرّ علىّ ظنونًا سيئة من مثل أننى «تحجرت» عند حدود النقد الجديد، أو أننى «ناقد انطباعى»، واحتملت أن أرى فى المجال من يلوى عنق النصوص لتوافق أفكارا بعينها مجلوبة من وراء البحار، كما عزفت عن الانضمام للنوادى الخاصة التي تتبادل فيها المنافع، ورأيت فى ألم كيف تشوه المفاهيم ممن تنقصهم المعرفة فيعادون ما يجهلون، وأضرب أمثلة على ذلك ممن يودون أن يبدأ الشعر الحديث من السياب والبياتى وعبد الصبور، لأنهم لا يستطيعون قراءة شوقى والبارودى، أو يبشرون- عما قريب- بموت هؤلاء جميعا ليبدأ «شعرهم» الحديث من «قصيدة النثر»! وانظر - وتعجّب!- كيف يبشرون فى ناحية بقبول الآخر، وينفون فى ناحية أخرى قبول الآخر، متعسفين فى تفسير المصطلحات، بقصرها على ما يعرفون!

سمحت لى إقامتى فى لندن بحياة ثقافية ثانية، استعدت فيها ترددى على المسارح فى «الوست اند» ، ورأيت كيف أن مسرحيات كانت تمثَّل فى «حياتى الأولى» فيها- مثل مسرحية «مصيدة الفئران»- لا تزال يعاد تمثيلها على الخشبة كل ليلة، وكان هذا وحده دليلا كافيا عندى على احتياج النهضات إلى عزيمة روحية،

وطول نفس، وتعميق للجذور، والاهتمام بتواصل الأجيال، وتجويد العمل زمانا ومكانا، والنهوض البصير بالرسالة، والمرسل، والمرسل إليه. ووجدت شكسبير على العهد به فى كل من لندن، «وستراتفورد» مسقط رأسه، بل وفى المسارح الصغيرة فى الأحياء المختلفة، وفى الشوارع الخلفية. أما «التجريب» ، «والمسرح الاستعراضى»، «والعبث» ، «واللامعقول» ، «والحداثة» ، «وما بعد الحداثة» فلها من النشاط نصيب لا يجحد، ولكنها لا تتباهى بذاتها على الأصول المستقرة، والكلاسيكيات الثابتة، ولا تدعى امتلاك الحاضر والمستقبل عن طريق محاولة وأد الماضى، ولا تفعل الشئ البشع، وهو الإنفاق من المال العام لإيصال صوت واحد، أو احتكار المجال، أو الترويع الفكرى للآخرين !

أما حوانيت بيع الكتب، فقد تغيرت أسماؤها، وتغير مالكوها، ولكنها لاتزال تفتح خزائنها لمن يريد. وهى تتفنن فى عرض ما لديها، وتغرى زبائنها بشتى المغريات. وأنت تستطيع- مثلا- أن تذهب إلى «فويلز» المعروفة- فى تشارنج كروس- فتقضى سحابة يوم، فى فرجة حرة على معروضاتها التى تشبه فى جمالها وتنوعها حدائق الزهور: تنتقل من قسم إلى قسم؛ فإذا نال منك التعب فثمة

مقاعد للراحة فى الطرقات، وثمة فرصة لتناول شراب ساخن أو بارد فى الردهات. وأنت حر فى أن تغادر المكان فى نهاية المطاف، وقد قرأت كثيرا، ولم تشتر شيئا. فإذا اشتريت شيئا- قلّ أو كثر- فثمة من يتناوله منك بابتسامة، ويعده لك فى دقة وسرعة، فيصبح مغلفا فى يدك بغلاف جميل، كأنه هدية من هدايا العيد. أين هذا مما أجربه بنفسى فى واحد من أشهر ميادين القاهرة؛ إذ كان هذا الناشر المعروف يفترش بضاعته على الرصيف «للفرجة»! حتى إذا «أطلت» النظر - دقيقة أو اثنتين- وجدت من يتحرش بك فى فظاظة: «وسّع طريق ياحاج!» ، «صلى على النبى»، «أى خدمة يا باشا» ، ولا يزال يغمزك، ويلمزك، ويضيّق عليك الخناق، حتى لا يدع لك إلا طريقا واحدا للحركة هو طريق الانصراف!

وكانت الموسيقى تعزف فى زيارتى الثانية- شأنها فى زيارتى الأولي- فى «الويت هول»، والفيستفال هول»، وفى كل القاعات الأخرى؛ الكبرى منها والصغرى، وفى الحدائق العامة، وفى المناسبات التي ترصّع العام على مداره. أما المتاحف والمزارات، وقصور الأرستقراطيين- ومنها «باكنجهام»- فهى لاتزال على العهد بها، فى المدن، وفى الريف الإنجليزى الجميل. وفيها تجد الحياة

التى تتسع لكل الأذواق، ويجد فيها كلّ ما يريد. وأنا هنا أتحدث عما رأيت وجربت، ولا أقصد إلى المدح أو المغالاة، وأعلم أننى لا أواجه جنة من جنات الفردوس هبطت إلى الأرض، وإنما أتحدث عن «مفردات» ثقافية نهلت منها على قدر استطاعتى. ولا أقول إن انجلترا التى عشت فيها مبرأة من العيوب، وإنما أقول إن «أوكار» انجلترا- التى تتجلى فيها نفاياتها- لم تكن من مقاصدى، كما أننى لم أدخل- ولا أريد أن أدخل- جحور العقارب التى أعلم أنها موجودة فى كل مكان: المواخير وأماكن الدعارة فى جانب، وألاعيب السياسة، وتكتلات المصالح، والمنافسات التى لا تعرف الرحمة فى عالم الفرص بشتى أنواعها فى جانب آخر. لم أكن طالبا لشئ من ذلك، ولا تاقت نفسى لمعرفته أو وصفه. ولا أتوقع- لذلك- أن يقال لى : «من ذلك الذى يذم مصر؟» حين أعقد المقارنات بين الجميل لدى الآخرين، وما أتوق إلى أن يكون جميلا فى بلدى. وأرى ذلك يدخل فى حقوقى الأصيلة، بل فى واجباتى الأصيلة. كذلك لا أتوقع أن يقول لى محمد مستجاب فى ركنه «حرق الدم» مرة أخرى إننى أطلعته على «حجرة الصالون» ، ولم أطلعه على «دورة المياه»! وأصحاب العقول الفطنة، والقلوب الرحيمة، من أبناء بلدى، يعرفون

تماما ما أعرف، وأنا متيقن من أنهم يحسون نحو ما أقول الإحساس ذاته ، ويتطلعون التطلعات ذاتها، ويتألمون الآلام ذاتها!

لم تخذلني ثوابت لندن فى حياتى الثانية فيها، فبقيت المدينة على العهد بها فى بنيتها التحتية الثقافية العميقة، وفى نظامها ونظافتها، وفى جملة الصفات التى جعلتنى أحبها. لكنها خذلتنى فى بعض «الفروع» «والمستحدثات»، التى حالت بينى وبين التمتع بها بصورة كاملة. من هذه المستحدثات طغيان «البريطانى» على «الإنجليزى» واكتساح الأجيال الجديدة من أهل «الكمنولث» المكان. لقد توالد الآسيويون والأفارقة على نحو شكل ملامح المواطن البريطانى، وأزاح الملامح الإنجليزية التقليدية إلى الوراء. ومع ذلك فإن هذا التغير لم يزعجنى كثيرا، لكن الذى أزعجنى بحق تراجع الإحساس بالأمن العام، الذى قد يكون أثرا جانبيا من آثار هذا التغير. لقد كنت أتمتع فى لندن الستينيات إلى أقصى حد بالخروج من الأحياء المأهولة، والسير ساعات بين الخضرة الغامرة، وفى المماشى الطويلة التى تكوّن امتدادات الحدائق العامة، وهوامش الغابات الصغيرة، والريف الساحر، وكان هذا يغسل روحى، ويجعلنى أتغلب على صنوف الوحشة، بالنشاط الحركى الطويل،

الذى كنت أطلق فيه لخيالى العنان، فى جو الطمأنينة والإحساس بالأمان. لكننى وجدت كل ذلك قد تغير وياللأسف؛ فسمعت التحذيرات المتكررة فى وسائل الإعلام من التوغل فى الأماكن الخلوية، وقرأت عن النمو المطرد فى حالات الاختطاف والاغتصاب والجرائم- وكانت نادرة جدا فيما مضى. وحين أشار علينا محمد عبد الحليم- وكنا فى سهرة لديه- ألاّ نبقى أبدا فى عربة المترو منفردين، وأن نتحرك دائما إلى العربة الأكثر ازدحاما، عرفت أن إحدى متعى فى المدينة التى أحبها قد ولّت إلى الأبد!

وبعد سبع سنوات أخرى عدت إلى انجلترا، وكان القرن العشرون يلفظ أنفاسه، فقصدنا «كمبردج»، وأقمنا فيها فترة مليئة بالعمل والتأمل. «وكمبردج»- كما هو معلوم- مدينة جامعية تدور فى فلك جامعة كمبردج العريقة، وهى مدينة انجليزية بمعنى الكلمة؛ معمارها- فى الأغلب الأعم- قديم، ومبانيها انجليزية تقليدية، واطئة وسقفها قرميدى منحدر، وشوارعها الفرعية أشبه بالدهاليز، وهى تعيد إلى الذهن جو الروايات الرومانسية والفكتورية- نظيفة، ومبتلة غالبا بالمطر، وضبابية فى الشتاء، وهادئة إلى حد الصمت، ودورة حياتها ميكانيكية، وذلك لفرط ما يعتورها من النظام، وما عليك إلا

أن تتسمع إلى إيقاعها، وتجعل نفسك بعضًا منه، وستقوم هى بعد ذلك- نيابةً عنك- بالباقى كله!

وصلناها فى أول فبراير، ذات مساء رمادى بارد، فى سيارة محمد عبد الحليم من مطار هيثرو- مرة أخرى- وكان السائق أيمن ابنه الأصغر هذه المرة. وجاد علينا بعض أصدقائنا بشقتهم الصغيرة فى المدينة، فلم يكن علينا إلا أن نحط رحالنا فيها، ونخرج فورا لاستطلاع المكان، وقد وضعتنا لذعة البرد المثيرة، وهدوء الجو، وخضرة المكان، ونظافته، فى جو هو بالحلم أشبه: انفردنا على الرصيف الواسع المبتل، وامتد أمامنا الشاع فى غبش المساء، دون مخلوق على مرمى البصر، فحل علينا سلام غسل كثيرا من أوضار الروح التى تراكمت عليها، وحين عدنا كان الظلام قد حل، فأوينا إلى الفراش مبكرين، ومع أول ضوء أزحت الستائر السميكة عن الواجهة الزجاجية الممتدة بعرض المكان، فأطلت على شمس مشرقة، تتلألأ تحتها حبات الثلج، الذى يغطى بياضه الناصع النقى البساط الأخضر الواسع، وقامت على البعد شجرة فارهة أو شجرتان وسط هذا البراح، وشقشقت جماعة من العصافير المغردة، متنقلة في خفة على الفروع السامقة، وساقطة

فى مرح على الثلج المتلألئ، فعرفت أن هذا المشهد البديع سيكون دائما أول ما سأملأ به عيني كل مطلع صبح.

كنت أخطو فى ثقة نحو السبعين من عمرى، وقد تخلصت من كثير من عاداتى التى كان قد تمكن بعضها منى على مّر السنين، واصطفيت ما أحبه منها، وأعتقد فى فائدته، وكنت كذلك قد تخلصت من بعض عاداتى الغذائية، فتناقض وزنى، وأصبحت «رشيقا»! . حقا إن جسمى لم يمل إلى السمنة قط، ولكن تخلصى من بعض «اللحم والشحم» اعطانى خفة فى الحركة ورفع- بالتالى- من روحى المعنوية. أما فكرى فكان طليقا؛ وقد ودّعت كثيرا مما تراكم فى ذهنى من الأفكار الغريبة على مدى حياتى، واحتفظت فحسب بالقدر الذى أستطيع أن أبرهن على صحته، وكنت سعيدا أن نجحت فى أن أضع جانبا كثيرا جدا من «الأوهام والخرافات» ، وأطوى صفحتها من حياتى.

فى صباح اليوم التالى قصدنا وسط المدينة، ومسحنا الأمكنة بنظرات خاطفة، ودرنا حول الكليات ومعاهد العلم، وعبرنا نهر «الكيم» ، وتوغلنا وسط الخضرة العميقة، فى المروج التي كان يتبرعم فيها زهر الربيع، حتى وصلنا مكتبة جامعة كمبردج، التى

كنت سأنزل ضيفا يوميا عليها، مدة بقائى فى المدينة. ولم أجد صعوبة تذكر فى الحصول على البطاقة التى أعبر بها بوابتها كل صباح، وأدلف إلى خزانة خاصة بى فى ركن منها ، أضع فيها أحمالى من الملابس الثقيلة التي أتدثر بها، وذلك حتى أتمكن من التجول خفيفا فى طوابقها، وأروقتها، وقاعاتها، وأنهل من كنوزها المعرفية، وأستطيع أن أتناول فى ركن آخر منها- غاية فى الدفء والأنس- ما أجدد به نشاطى من مأكولات أو مشروبات.

قبلتنا «كمبردج» إذن ضمن حياتها اليومية: نهبط سويا يوميا إلى وسط المدينة، فأترك زوجتى فى «اللاين يارد» (باحة الأسد!) ، وأعبر النهر على قنطرة حجرية عن طريق اختراق كلية من الكليات العتيقة، فأكون فى المكتبة- على الضفة الأخرى- حوالى العاشرة. وتعود هى إلى الدار حوالى الواحدة بعد الظهر، حاملة ما تشاء، لتباشر شئونها، ولا أعود أنا إلا فى المساء المتأخر، بعد أن تغلق المكتبة أبوابها. كان هذا حالنا أيام الأسبوع (من الاثنين إلي الجمعة)، فإذا حلت نهايته قضيناها فى متحف المدينة الشهير «فتزچيرالد»، أو فى حديقة النباتات، أو فى إحدى الرحلات المنتظمة الطوافة بمعالم المدينة، أو أخذنا القطار الدافئ السريع

إلى لندن، لزيارة السعيد بدوى أو محمد عبد الحليم، ولتجديد العهد بالمدينة الأم الكبيرة.

قضيت وقتا طويلا أتعرف فيه على «جغرافية» المكتبة، وأدرس توزيع ثروتها على طوابقها وأركانها، وأختبر الوصول إلى ما أريده منها عبر طوابقها، ومنافذها، ودرجاتها، حتى أمسكت بسّرها، وحددت مرادى منها، وهو جناح «الإنسانيات» وفيه الآداب، والتاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والتاريخ، ومعارف أخرى. وبقيتْ أمامى قاعة الاطلاع الكبرى، وفيها المعارف العامة بشتى ألوانها.

فى هذا الجناح الحافل بثمرات العقول البشرية، من مبدعين ومنظّرين، على مدى التاريخ، أقمت ثلاثة أشهر متتابعة؛ لم أضيّع منها يوما أو ساعة من أوقات العمل فى المكتبة. كنت أفحص ما أريد فحصه على مهل، وأستوعب فى تؤده ما أستطيع استيعابه من جذور المعرفة، وفروعها، وثمراتها. وكان مذاق بعض هذه الثمرات فى حلقى حلوا، وبعضها مرّا، وأما ما لم أقو على استيعابه فقد وضعته جانبا، غير ظالم لنفسى، ولا للآخرين. كنت أجتهد فى الفهم، وأقبل على ما تتفاعل معه نفسى، فإذا انفتح لى باب عرضته

على ما عندى من معارف ، لأجد له مكانا يفسر لى به شيئا، أو يكمل لى شيئا، فإذا أعيتنى الحيلة فى ذلك فإننى لا ألعن ما أعيتنى فيه الحيلة، ولا آسى عليه. ذلك لأننى أصبحت من المؤمنين بأن الدنيا تسع الجميع، وأن الفكرة التي لا أراها مفيدة قد تكون عظيمة الفائدة لغيرى، وأن «احتكار المعرفة» شر ما يمكن أن يصاب به طالب المعرفة.

لاحظت- فى عالم النقد الأدبى- كيف أن «النبرة الأمريكانية» تعلو ضاغطة على «النبرة الأوربية»، وكيف أن «النبرة الأوربية» تتراجع متخاذلة! وكنت على وعى بأن هذا الضغط الأدبى هو جزء من ضغط أكبر فى محاولة الهيمنة السياسية والاقتصادية. وقد أصبحت هذه المحاولة واقعا عندى لاشك فيه، بعد أن صدقتها بعض تجاربى العملية فى الجامعة الأمريكية. كذلك رأيت من موقعى المتوحد هذا فى جناح الإنسانيات فى «مكتبة كمبردج» كيف أن البنية النقدية العميقة، التى أرسيت دعائمها فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضى، تمتحن امتحانا عسيرا فى نهاية القرن، وأن الثورة التكنولوجية فى عالم الاتصالات، ودخول شبكة «الإنترنت» عنصرا مؤثرا فى نصرة من يستطيع تغذيتها بطريقة

أسرع وأوسع، يمكن أن يسهما على نحو حاسم فى إعادة تشكيل الرؤية النقدية، وأن الأمر فى هذا التشكيل لا يخضع للتروى، والفحص المستقصى، والتحليل الموضوعى، واتساق المقدمات مع النتائج؛ فذلك كله من ثقافة عصر يتداعى، وإنما يخضع لمن يحقق السبق فى فرض واقع جديد !

وهكذا تتلاشى سريعا قيم، وتحل محلها قيم، ولهذه القيم الجديدة طبيعة «شمولية» ، شبيهة بالشمولية التى شنت عليها الحرب فى الماضى، باسم الحرية والديمقراطية، حتى تداعت. ونحن نسمع الآن عن وجوب سيادة عالم جديد ملزم، تحكمه قوانين أحادية، لاندرى كيف تم التوصل إليها، ومع ذلك تنعت نفسها بالديمقراطية. وسأضرب لذلك مثلا «ثقافيا» : يحدثك الناس مثلا عن «النقد الثقافى» بصفته بديلا عن «النقد الأدبى» ، فإذا ذهبت تدقق فى «أصله وفصله» ، لم تظفر فى نهاية المطاف إلا بعبارات عامة غائمة، لا تثبت أمام الفحص على محكّ أى منهج معتمد تعلمنا عليه. وإذا رحت تطالب باختبار هذا «النهج» على مادة محلية من واقع ثقافتنا- التى وُجدنا لخدمتها فى الأساس- هَالَكَ ماترى من وضع الشعر العربى كله فى خانة مكتوب عليها «شعر ذكورى» ، دون أن

يتفضل عليك أحد حتى بمجرد شرح العبارة، أو «شعر سلطوى» أو ما إلى ذلك من عبارات تَخْتزل فى جملة واحدة غامضة مساحة سعتها ما نعلم من المحيط إلى الخليج وماوراءهما، وعمرها ما نعلم من عشرات المئات من السنين . والأمثلة المضروبة- فى أحسن الأحوال- أبيات منزوعة من سياقها، دون تحليل أو تأصيل! فأية شمولية أقسى من هذه؟ بل أى «إرهاب»، «وترويع» أدبى أبشع من مدلول هذا؟ تكون مع من يقول بهذا، أو يحق عليك القول «بالجهل» ، «والتخلف» ، «والرجعية»، «والعجز عن مواكبة الجديد» ، وليس هذا من عندى، أو هو توقع لما يمكن أن يقال، بل إنه قد قيل بالفعل فى «مراشقات» منشورة عاشت عليها الحياة الأدبية صيفا ساخنا فى الماضى القريب!

هكذا كنت أتأمل الأحوال، وأنا فى خلوتى، محاصرا بفيض هائل من محاولة «الهيمنة» التى تتجلى فى فيض هائل من ثمرات المطابع مع تسهيلات هائلة فى جانب، وعقبات بالغة، وتعتيم ثقافى فى جانب آخر. إن حال أوربا الثقافى يتراجع أمام عينى، وأنا فى عقر دارها، أما حال الثقافات الأخرى- غير الأمريكى- فينكمش، وبعضه يكاد يتوارى. اذهب إلى ركن الأدب العربى مثلا فى مكتبة

جامعة كمبردج، التى تعد من أكبر المكتبات الجامعية فى العالم، وأثراها كنوزا، وستراه معلقا فى السقف، قصيًا ومنبوذا ومظلما، يحتوى فى جانبه الكلاسيكى على بعض النفائس، ولكنه فى جانبه الحديث لا يحتوى إلا على «رف» أو «رفين» من الترجمات التى تحمل أسماء أدباء «الدرجة الثالثة» وما بعدها، وتعجبْ كيف ترضى مكتبة عظيمة لجامعة عظيمة كتلك، بأن تقدم هذا على أنه يمثل الأدب العربى الحديث؟. هكذا ركبنى الحزن وأنا أتفحص هذا الركن البائس الفقير، لكننى قرب انتهاء رحلتى فيه عثرت على ما بعث الراحة فى نفسى قليلا، وجدت كتابا لروجر آلان فى تاريخ الرواية العربية منشوراً فى مطبعة جامعة مانشستر سنة ١٩٨٢ يقول فى مقدمته إن محمود الربيعى أحد نقاد عرب قلائل – وذكر خمسة آخرين– استطاعوا أن يكسروا حاجز المحلية. أدهشتنى عبارته، وأنعشتنى، والنفس الإنسانية هى النفس الإنسانية!؛ إذ لم أكن أحسب أن ما كتبته فى النقد الأدبى يمكن أن يلفت النظر إلي هذا الحد، ولم أكن أعرف روجر آلان، ولارأيته إلا مرة واحدة على نحو عابر، وبالصدفة، منذ سنتين أو ثلاث !

وحدث أن تفشت «الحمى القلاعية» فى الأغنام فى بريطانيا، وسرعان ما أصبحت وباء. وبدأت حملة تحذير من زيارة الريف،

وسادت حالة من الكساد العام، وأحجم الناس عن أكل لحوم الأغنام، وزدنا نحن فامتنعنا عن أكل اللحوم جملة، مقتصرين على أكل الأسماك، وكنا نتابع فى ألم المحرقة الهائلة التى يقدمها التليفزيون ليلا للأغنام، وآلام الفلاحين الذين حلّ بهم الخسران، وحروبهم الشرسة مع الحكومة، وجرأتهم البالغة فى دحض قراراتها وسخف إجراءاتها، فأضفنا بذلك إلى معلوماتنا فى الطريقة التى تحكم بها البلاد الشئ الكثير.

وامتلأت جعبتى؛ فأصبحت معبأ بما قرأت، وما شاهدت، ونمت ثروتى الحسية بجمال المدينة، وفاضت نفسى بأحاسيس لم أمارس مثلها منذ فترات تكوينى الأولى. وعادت إلى قلبى أشواق قديمة للإبداع الشعرى، كنت قد ودعتها منذ تخرجى فى «دار العلوم» قبل نصف قرن من الزمان. وكتبت رسالة خطية إلى صديق العمر الجميل فاروق شوشة، ضمنتها قصيدة، مكتوبة بلغة عفوية بسيطة محررة من الرتوش، فجاد علىّ بنشرها فى مقاله الأسبوعى فى جريدة الأهرام (الأحد ٢٢ إبريل سنة ٢٠٠١) مع تعليق رقيق. وأود أن أعيد هنا كتابة هذه القصيدة التى كانت تحمل عنوان «يوم من أيام كمبردج» :

« أقرأ فى مكتبة الجامعة من الصبح إلى الليل »

عقلى ثرثار وفمى صامت

والصمت يعوضنى عن كل الأصوات

أتقلب بين الفكرة والفكرة

الفكرة وبديلتها

والفكرة ونقيضتها

أبنى العالم وأقوضه

أخسره وأعوّضه

من أقصى الشرق لأقصى الغرب

يتردد «بندول» الفكر

أقرأ تاريخ البشرية

عقل البشرية

قلب البشرية :

المتمرد والمنحاز

المؤمن والمتردد والمنكر

البانى والهادم

والبانى وهْو الهادم

والهادم وهْو البانى

المبدع ضمن مثال سابق

والمبدع دون مثال سابق

والمتبع المجترّ

والتجريبىّ لذات التجريب

والتخريبى لذات التخريب

والموقن أن الفجر على الأبواب

والموقن أن الفجر سراب

والواهم بالفجر الكذاب

والتركيبىّ

والتفكيكىّ

والتوثيقىّ

والتلفيقىّ

والمتحمس للنقد النسوى

وما بعد «الكولونيالية»

البعض يفلسف ويعمق

والبعض يسطح ويزوّق

والبعض يتاجر ويسوّق

يقلقنى أن العمر قصير

وأن نتاج عقول البشر غزير

وأن استيعاب الفكر - الفكر الحق- عسير

تتعارك فى الصفحات أمامى الأفكار

تتباعد أو تتقارب

تتنافر أو تتجاذب

لكن لها فى آخر رحلتها نسقا حيا

أرصده لا أتدخل فيه

أو أتدخل فيه

أخلطه بخيالى

فأحسّ بأنى صاحبه ومشكله

وبأن المبدع خلاّق

والقارئ خلاّق

أخرج تحت المطر المنهمر مع الليل وحيدا
لا يؤنسنى إلا وقع خطاى
أخلط نفسى بالنهر وبالعشب وبالقنطرة الحجريّة
بالشجر المبتلّ المتمايل تحت الريح وبالريح
بالأرصفة اللامعة الممتدة
بالمعمار المتسق المتناغم
بالفهرسة المتوازنة لمجمل ما تدركه العين
وما يدركه القلب
يمتد الشارع أو يتعرج
يتحشم أو يتبرج
أفنى فيه
وأرى نفسى دائرة صغرى فى الدائرة الكبرى
أتحرر من كل الأوهام
لا أطلب مالا أو جاها أو حتى معرفة
أطلب أمن الداخل
ما أطلبه فوق المعرفة وفوق المال وفوق الجاه

أدخل دفء البيت

أتخفف من كل عناصر «الاكسسوار»

«المعطف والشمسية والكوفية والكاب»

لكن أنّى لى أن أتخفف من معترك الأفكار وحمى الأفكار

تستسلم عينى للشاشة

والشاشة تعرض معتركا آخر .. حمى أخرى

معترك الغطرسة وحمى الهيمنة والاستيطان والاستئصال

وحمى الأغنام وحمى الأبقار

وعليها لحم آخر يعرض للشارين

الأبيض والأسود والأصفر

يربكنى أن يتداخل فى عقلى معنى الماضى والحاضر والمستقبل

يجهدنى أن تختلط الذكرى بالصوت وبالصورة

أعبر للنوم حزينا وبطيئا

يصحبنى ضوء خافت

أمل خافت

أن أحيا يوما آخر

أقرأ فيه فى مكتبة الجامعة من الصبح إلى الليل»

وهكذا شربت من بحيرة «كمبردج» حتى ارتويت، وتقت إلى أن أتحول إلى مدينتى القديمة «لندن» ، مهبط الذكريات الغضّة، ومحط الآمال الكبار أيام الشباب.وقد هيأت الظروف لنا فيها بيتا كاملا، ذا طوابق ثلاثة، قرب مطار هيثرو؛ فقضينا فيه طرفى الربيع والصيف. وجاء إليه كل أفراد أسرتنا تباعا، أمين، ونجلاء، وعمر، ونادية، ومى، ونورا، وحكيم، فالتأم الجمع، وبدأنا جولات واسعة فى المدينة الكبيرة، غطت الحدائق الغناء الشهيرة : «هايد بارك»، و«ساين بارك» ، «واوسترلى بارك» ، فتبددت وحشتنا الشتائية ، وأشاع الأحفاد فى نفسى، ما يشيعونه دائما، من لواعج هى مزيج من الأنس، والقلق، والشجن الغامض، وكنت أحب أن أستسلم دائما لهذه اللواعج، ولا أقاومها، وانتقل فيها من «حال» إلى «حال» .

لكن الدنيا الضنينة لا يمكن أن تصفو ، وإن خايلت بالصفاء؛ فسرعان ما جاءتنا الأخبار بأن إبراهيم الترزى خال أولادى مريض جدا، وأن علينا أن نقطع رحلتنا، ونعود لنلقى عليه النظرة الأخيرة. وقد قضينا وقتا عصيبا فى ترتيب رحلة العودة، وأدركه منا من أدركه، ووصل البعض الآخر متأخرا بعد أن وورى إبراهيم التراب!

ولا أنسى الفترة القصيرة التى قضيتها وحدى فى البيت الطويل العريض الموحش، وقد رحل الجميع.

كان يومى الأخير فى لندن- بعد أن جاءتنى الأخبار - يوما حزينا؛ فبعد ليلة لم يزرنى فيها النوم، أزحت الستارة؛ إذ شعرت بالضوء، فوجدت الشمس بازغة، وكانت حمراء كالدم!. وبعد قليل جاءنى صوت السعيد بدوى يدعونى إلى النزول إلى وسط المدينة، وقضاء النهار معا. وقال لى إنه سيعود معى فى المساء لنقضى الليلة، ونسلم البيت إلى الشركة التى استأجرناه منها فى الصباح، ويودعنى إلى «هيثرو» .استسلمت لرغبته، وقطعت إليه طريقا ماطرًا، وبعد الغداء فى بيته عرض علىّ أن نتجول قليلا فى المدينة ، ونزور «المكتبة البريطانية» فى «سان بانكرس»، وقد هدأت نفسى قليلاً فى جو المكتبة ، وتقليب صفحات المخطوطات، وراء شرائح الزجاج السميك، بفعل التكنولوجيا المتقدمة، وفى المساء عدنا إلى بيتنا، وتجاذبنا أطراف الحديث حتى تقدم بنا الليل ، وتركت السعيد جالسا على مقعد مريح يشاهد التليفزيون، وصعدت إلى غرفتى ، تاركا له غرفتين يختار من بينهما لنومه. وفى الصباح عدت إليه فوجدته غافيا على مقعده لم يبرحه! ومع الظهيرة كنا فى المطار،

وكانت رحلة عودتى رتيبة، لم أتحرك فيها من مقعدى ، ولا تناولت شيئا. وحين ألحت على المضيفة فى تذوق شئ مما تعرضه قلت لها إنى صائم !

هكذا أتاح لى نظام العمل فى الجامعة الأمريكية أن أعود فى زيارتين تعليميتين إلى انجلترا ، البلد الذى كنت أتممت فيه تعليمى العالى، وتفتحت فيه مداركى، وقضيت فيه سنوات عزيزة من شبابى. أما رحلتى الثالثة فقد كانت إلى أمريكا سنة ١٩٩٨. والحق أن زيارة أمريكا لم تخطر قط على بالى، ولاكنت مستعدا لها، ومع ذلك قُدّر لى أن أذهب إليها، بعد أن أصبحت رئيسا لقسم الدراسات العربية، وكان علىّ أن أحضر- كما كان يقضى العرف- المؤتمر السنوى لتجمع دارسى الشرق الأوسط : MESA، وهو تجمع واسع، يضم شبابا وكهولا وشيوخا، من المتخصصين فى دراسات الشرق الأوسط، بمعناها الواسع، وهو معنى لا يشكّل الأدب سوى جزء ضئيل منه. ولم تكن رحلتى مثيرة، كما كانت رحلاتى إلى كل بلد أذهب إليه لأول مرة، والواقع أننى نهضت إليها متثاقلا، وبدافع الواجب ليس غير، ولولا أن السعيد بدوى كان ذاهبا لنفس المهمة، لالتمست، فى عدم الذهاب إليها، الأعذار.

أخذنا الطيران الهولندى من القاهرة فجرا، فكنا فى «امستردام» فى الضحى. ومطار «امستردام» لمن لا يعرفه، شريان بالغ الحيوية بين أوربا وما وراء المحيط. وأتذكر أننى وصفت مرة النازل من الجزر البريطانية الضبابية إلى إيطاليا المشمسة، كالخارج من غبش الفجر إلى ضوء الضحى ، وأود أن أقول الآن إن الذى يعبر من جو هولندا الهادئ الأخضر- شبه الريفى- إلى مطار «أوهير» فى شيكاغو، كالذى يترك جو «العصور الوسطى» إلى جو «العصر الحديث». ما هذا العالم الصاخب الذى لا أول له ولا آخر الذى يسمى «مطارا»؟ ما هذه المخارج والمداخل التى لا حصر لها؟ وما هذه القطارات التى تجرى على قضبانها دون سائق، حاملة هذا العدد الهائل من البشر من مكان إلى مكان؟ وما هذا الخليط المدهش من الناس الذى يجمع فى بقعة واحدة بين الأبيض، والأسود، والأصفر، وما بينها. ومع ذلك لم يكن طعم الإقامة فى أبراج الهيلتون فى المدينة جديداً علىّ، كما لم يكن «طعم» المعارف التى يقدمها المؤتمر فاتحا لشهيتى : يحشد المتحدثون- ومعظمهم من الشبان - فى الجلسات حشدا، لكلٍّ دقائق معدودة، فإذا انتهى ذلك فثمة الأسئلة المملّة والتعليقات

الأكثر إملالاً أما المحاضرات فتلقى من فوق الرءوس، ويستجلب لها «النجوم»، ويسود فيها جو «العلاقات العامة». وقد سألت عن الحكمة البالغة من هذا العناء ، فقيل لى إن الناس يأتون «ليشهدوا منافع لهم» وكثير منها يقضى على هامش «مؤتمر ميسا» . والذى لاحظته أن الشباب يتنافسون فى تقديم آخر «الصيحات» فى المناهج والموضوعات : «التفكيكية» ، «والنقد الثقافى» ، «وحقوق الإنسان» ، «والمهمشون فى المجتمعات المتخلفة» ، «ووضع المرأة المقهورة فى العالم الثالث» ، وخطاب «ما بعد الكولونيالية» - وما أشبه ، وأتذكر المرة التى حضرت فيها جلسة عن «الكتابة النسوية» والضغوط الواقعة على المرأة فى مصر، وكانت المتحدثة شابة أمريكية، فلما سألتها أن تقدم لنا أمثلة عن الأصوات النسوية المصرية ، التى تعتبرها أصواتا أدبية ذات قيمة، أشارت إلى بعض الأسماء التى لم أكن قد سمعت عنها قط، وحين استفسرت عن ذلك علمت أن هذه أسماء لكاتبات شابات يعشن فى أوربا وأمريكا وكندا- ودهشت لهذه الكيفية التى تؤخذ بها الصورة الأدبية «الأكاديمية» عن الشعوب! وحين طفنا معالم المدينة- مع مرشد سياحى- كان واضحا أن ثمة مدينتين واحدة للبيض وأخرى للسود.

وقد شهدت عرضا موسيقيا ذات ليلة على أحد المسارح كان غاية فى الحيوية ، لكننى أسفت لأنه لم يتح لى أن أرى عرضا آخر كنت أتوق إليه، وهو موسيقى «الجاز» الذى تشتهر به المدينة.

لم يكن فى نيّتى - ولا خطر ببالى- حين تركت «دار العلوم» إلى الجامعة الأمريكية، أن أتولى أية مهمة إدارية، لكن مجموعة من زملائى رغّبت إلىّ تولى رئاسة قسم اللغة العربية، لأسباب ذكروها، وأقنعونى بها. وكنت- ولازلت- أومن بفكرة الديمقراطية ، وتكافؤ الفرص، وإعطاء وجهات النظر المختلفة حقا متكافئا فى التعبير عن نفسها، والوصول إلى القرارات عن طريق التمحيص والبرهنة. ولم أضق بالمناقشة مرة واحدة في حياتى ، وذلك لأننى لم أشعر مطلقا بعدم القدرة علي تكوين الحجج التي أعتقد فى صحتها سندا لرأيى، ولاضقت ذرعا بأية نتيجة تنتهى إليها أغلبية الناس.

ولم أكد أنهض بأعبائى التى رجوت أن يكون لبها تحسين الأداء، حتى حدثت أزمة غريبة فى العمل، لم أستطع أن أقطع حتى الآن إن كانت قد جاءت طبيعية، أو افتعلت افتعالا : حدث أن عُرض على الطلاب - ضمن مقرر من مقررات القسم- نص رأى فيه بعض الطلاب- كما رأى أولياء أمورهم- «أدبا إباحيا»، فنقلوا ذلك إلى

رئيس الجامعة ، ثم تفاعلت الأمور بسرعة ، فأصبح ذلك حديث الصحافة المصرية والأجنبية ، ثم انتقل الموضوع إلى «مجلس الشعب المصرى» – وكانت أزمة قضينا فى نارها عاما كاملا :

كانت الناحية العربية فى الصحافة المصرية– فى مجملها – تستنكر عرض مثل هذا النص على الطلبة المصريين ، باعتباره يتسبب فى تدمير أخلاق الشبيبة ، وكانت الحملة المضادة فى الصحافة الناطقة بالإنجليزية، وعبر «الانترنت» ، تعد تلك الحملة تدخلا فى «الحرية الأكاديمية» للأساتذة ؛ الأمر الذى يخالف روح التعليم الجامعى، وبخاصة طبقا للنظام الأمريكى. والذى حدث أننى أسهمت بكتابة كلمة قصيرة جدا، عُدّت من قبل الصحافة المصرية تحيزا «للجانب الآخر» ، وعدت من قبل المنتصرين للحرية الأكاديمية، كذلك، تحيزًا للجانب الآخر! وحين اشتد اللغط حاولت أن أحصر المناقشة فى حدودها المتعلقة بمناهج الدراسة، ومدى ملاءمتها أو وفائها بما وضعت من أجله ، ولكن دون جدوى ؛ فقد انطلقت شعارات «الأخلاق والقيم» فى جانب ، «والحرية الأكاديمية» فى جانب آخر ، وتيقّنت أنه لا أحد على استعداد للاستماع إلى أحد ، وامتدت الحملة الخارجية إلى ماوراء البحار ، وتوارى

الموضوع الأجدر بالمناقشة، وهو موضوع مدى التقصير - أو عدم التقصير - المنهجي فى تصميم المواد وأدائها. وقد قضينا وقتا طويلا فى جدل يبلغ أحيانا حد التربص والمهاترة، وبدا لى أن هناك إصرارا على عدم عودة النقاش إلى جذور المسائل، فطلبت أن تعقد حلقة نقاش على مستوى الجامعة ، يطرح فيها نوع من التوعية بمعنى «التعليم الحر» طبقا للنظام الأمريكى فى ناحية ، والتغيرات الحاصلة فى المجتمع المصرى فى ناحية أخرى، كما يطرح فيها معنى «الحرية» فى مقابل معنى «المسئولية» ، فلم يحفل بطلبى أحد، وتشاورت مع رؤساء الوحدات الأكاديمية فى قسمى، وخرجنا برأى هو عدم إلغاء هذا النص، ولكن التحول به إلى مناهج الدراسات العليا، فلم يرض ذلك المتخندقين وراء متاريس «الحرية الأكاديمية» ، ولم يسدل الستار على هذا الأمر إلا بصدور قرار رسمى حكومى بمصادرة هذا النص، وبذلك أصبح عرضه على الطلاب مخالفة قانونية !

خرجت من هذه التجربة القاسية بدروس كثيرة ؛ منها أن كلمة «الشفافية» كلمة حق يراد بها- كثيرا- باطل ؛ فالناس يطالبون بها مادامت تخدم أغراضهم ، فإذا كانت «الشفافية»

تلزمــهم الحــجــة تفننوا فى «الحــجب والإخــفــاء» ، ومنهــا أن «الديمـقـراطيـة» وملحـقـاتهـا لا تـحـقق العـدل دائمـا، وأن «عـدد الأصـوات» ليس سـوى وسـيلة للانتـصـار فى الصـراع، ومنهـا أن استباق الدفاع بالهجوم سياسة متبعة، ومنها أن القفز إلى النتائج السـريعـة يـخـفى حـرصـا مـقـصـودا على طمس مـحـاولة تمـحـيص المقدمات ، ومنها أنه حتى فى المستوى الأكاديمى تبنى الآراء على «القيل والقال» ، وعلى مثل «يشاع» ، «وسمعنا» ، ومنها- وهذا قديم - أن المصلحة الخاصة تتزيا كثيرا فى زى المصلحة العامة !

وكــان أن أعلن «اتحــاد الكتــاب المــصــريين» عن ندوة موضـوعـها: «حرية الإبداع» ولم يكن لدى أدنى شك فى أنه قد فكر فيـها فى جو تلك الأزمة ، ودعانى إلى الكلام ، فبدأت قولى برفض الرقـابة على الإبداع فى كل شكل من أشكالهـا ، ورفـضت الرقـابة على الكتب ومـصـادرتهـا، وزدت فـقلت إن الذين يراقـبـون الكتب- كـالذين يحـرقـونـهـا- إنمـا يعـتـرفـون بأثرهـا البـالـغ، كمـا يعـتـرفـون بعـجـزهـم عن مـواجـهـة هذا الأثر. وقلت إن الحـرية كلٌ لا يتـجـزأ، وينبغى أن تكون مكفولة للجميع، مبدعين ومتلقين، وعليه فلابد من التوصل إلى معادلة متكافئة فى مجال الإبداع الأدبى، وهى معادلة

يمكن التعبير عنها بالتالى : الأديب حر يكتب ما يشاء، والقارئ المتلقى حر يقرأ ما يشاء. وهذه المعادلة العادلة تفرض علينا من الناحيتين المنطقية والأخلاقية، التفرقة بين نوعين من ممارسة هذه الحرية؛ النوع الأول مطلق، ويتجلى في حرية الأديب فى الكتابة التى يتوجه بها إلى القارئ العام؛ فالأديب فى هذه الحالة يطرح الكلام، والمتلقى يتلقى أولا يتلقى ، والنوع الثانى مقيد، وهو يتجلى فى اختيار ما نقدمه للدارسين فى قاعات الدراسة، والقيد حاصل فى وجوب أن تختار لهم ما يلائمهم، وما هم مؤهلون لاستيعابه، والاستفادة منه؛ وعلى ذلك فما يصلح لعمر معّين لا يصلح لعمر آخر، وما يصلح لتأهيل معين لا يصلح لتأهيل آخر، وما يصلح فى مراحل ابتدائية لا يصلح فى مراحل متقدمة. ونحن إذا لم نراع ذلك كناقد أخللنا بأحد طرفى المعادلة؛ وذلك حين أطلقنا حرية الأديب فى العرض، ولم نطلق حرية المتلقى فى التلقى.

ثم ضربت مثلا توضيحيا على ما أقول فقلت : إننى إذا قدمت – مثلا– رواية رفيعة المستوى من الناحية الفنية إلى مجموعة من الطلاب المراهقين فى مقرر دراسى، وكانت هذه الرواية تحتوى على صفحات تصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة ، فإن هؤلاء

المراهقين سيخلطون حتما بين ما يقرءونه فى هذه الصفحات ، وبين تصورهم للعلاقة الجنسية الواقعية ، وبالتالى سيحكمون على هذه الرواية بأنها من الأدب الإباحى. وهم معذورون فى ذلك، لأنهم لم يدربوا على قراءة العمل الأدبى، ولا فهموا الفروق بين الفعل الأدبى والفعل الواقعى. وعلى ذلك فالنتيجة الوحيدة التى نحصل عليها من هذا الاختيار الخاطئ هو تحقيق الإثارة الجنسية لا التأثير الأدبى. أما إذا قدمنا هذه الرواية ذاتها إلى دارس ناضج متمرس فسيدرك أن هذه الصفحات «الجنسية» إن هى إلا خيط من خيوط الفلسفة الكلية للعمل، وعلى ذلك فإنها فى سياقها قد نزعت عنها الإثارة الجنسية ، وحل محلها المعنى الفنى الذى يكسبها معناها الجديد ضمن العناصر الأخرى.

فلما كان وقت الأسئلة والتعليقات همس إلىّ مدير الندوة- وهو زميل أستاذ جامعى- مشيدا بالنص الذى أحدث الأزمة فى الجامعة الأمريكية، فلم أقبل منه همسه، وقلت له على رءوس الأشهاد: إذا كان هذا النص عندك بهذه الصفة فلماذا لا تدرّسه لطلابك فى الجامعة؟ فأجابنى - جهرةً هذه المرة- إننى كتبت عنه فى مجلة «المصور» مشيدا به، فقلت له : هذا هو ما يحقق فكرتى

بالضبط: تكتب فى مجلة «المصور» على حريتك، والقارئ يلتقط «المصور» أو لا يلتقطه ، ويقرؤه أولا يقرؤه على حريته، لكن الطالب الجالس فى قاعة الدرس ليس حرا فى تلقى- أو عدم- تلقى ما يعرض عليه. إنه مجبر على أن يتلقى ذلك ، وهذا هو معنى تسميته «بالمتلقى الأسير » THE CAPTIVE AUDIANCE.

تم كتبت مقالا فى مجلة «إبدا ع» فى الموضوع ذاته، فتوسعت فى شرح المسألة من جانبيها النظرى والعملى، وضربت أمثلة كثيرة على صحة ما أذهب إليه ؛ بعضها رقيق، وبعضها غليظ؛ وكان مما قلته : إن المشهد الجنسى فى رواية فجة من الأدب الإباحى يشبه النار المشبوبة الواقعية التى إذا مددت يدك إليها أحرقتك، أماالمشهد الجنسى فى رواية رفيعة المستوى - وقد يكون متشابها فى مضمونه مع المشهد السابق ذاته- فيشبه النار المصورة فى لوحة فنية بديعة ؛ فهى تتوهج محققة كل ملامح النار ، لكنها تنزل بردا وسلاما على نفوس عشاق الفنون. وكان مما قلته كذلك : إن الزوجين يتضاجعان فى غرفة نومهما ، ويلقيان مباركة المجتمع، الذى يعلم أنهما يتضاجعان، فإذا فعلا ذلك على قارعة الطريق- وهما زوجان- وقعا تحت طائلة العقاب ، فلنتأمل الفرق (والفعل واحد!).

وكانت بعض الأصوات ترتفع بأن الشباب يمكن أن يرى فى «الإنترنت» ماهو أكثر من هذا بكثير ، وكنت أرد بأن هذا يؤكد رأيى فى معنى الحرية ؛ فالشباب يكون فى هذه الحالة ، قد ذهب إلى «الإنترنت» بحريته. أما إذا أتى إلى قاعة الدرس فينبغى أن نتعرف على مستواه ومؤهلاته، وأن نقدم له ما يلائمه. ومرة أشرت إلى أننا لا يمكن أن نفرض على الطلاب ما يرفضونه فقال لى قائل (همسا أيضا!) إنهم أغبياء ! فقلت لهذا القائل : إن الحرية ليست وقفا على «الأذكياء» منا فحسب ، ولا ينبغى أن تكون !

عدت من انجلترا حزينا على إبراهيم الترزى ، وراغبا فى العزلة ، وعازما على أداء واجباتى فى حدود الضرورة ، وقد زادنى هذا التصاقا بالكتب ، واستغراقا فى القراءة والكتابة. وقد قوّى من عزيمتى أن ظهر لى كتابان جديدان فى وقت واحد تقريبا ، هما مجموعة لكثير من أبحاثى التي كانت قد ظهرت فى الدوريات، والمجلات المتخصصة ، والصحف، على امتداد الربع الأخير من القرن العشرين. كان الفضل فى ذلك فضل محمد حماسة الذى أشرف على مجموعة من الأبحاث الطويلة، وقدم لها بمقدمة ضافية، فصدرت بعنوان «فى النقد الأدبى وما إليه» ، وفضل حسن البندارى

الذى أشرف على مجموعة أخرى من المقالات ، وقدم لها بمقدمة ضافية كذلك، فصدرت بعنوان «مقالات أدبية قصيرة ».

ثمة شعار معروف فى الوسط الأكاديمى يقول : «النشر أو الفناء» Publish or Perish . والنشـر العلمي يعطينى دائمـا الإحساس بالاستمرار فى عالم لم يخذلنى - ولم أخذله - فى أية مرحلة من مراحل عمرى. والذى يتأمل حالة «البحث والنشر» فى عالمنا العربى يدرك أنها تستخدم غالبا لتحقيق أغراض عملية نفعية؛ فشباب الباحثين يبحثون من أجل «التأهل» للوظيفة ، ثم يبحثون وينشرون للترقية، فإذا وصلوا إلى سنام السلم الوظيفى غطوا فى سبات عميق- كأنهم لم يبحثوا يوما، ولم ينشروا يوما! وحتى الآحاد التي تستمر فى البحث والنشر بعد «الأستاذية» يطرأ على إنتاجها العلمى تغير نوعى، «والعصافير» الاستثنائية الأخرى «لا يمكن أن تصنع الربيع» ! - كما يقولون . ويبهجنى أن إنتاجى العلمى ينمو باطراد ، وأن الجزء الأكبر منه ينتمى إلى مرحلة ما بعد «الأستاذية» .

منذ أن حصلت على الدكتوراة من جامعة لندن برسالة موضوعها : Women Writers And Critics in Modern Egypt

وأنا أكتب باللغة العربية. وقد اخترت الكتابة بها مبدأ وتعبيراً عن الهوية. وكانت من الممكن أن تحقق لى محاولة الكتابة بالإنجليزية انتشارا أوسع، وربما فرصًا أفضل، مما تحققه لى الكتابة بالعربية، لكن اختيارى العربية كان عقيدة غير قابلة للتبديل. وأحس بسعادة غامرة حين أبلغ بالتعبير بلغتى آلام الغاية أو شبه الغاية، فيما أريد التعبير عنه من مشاعر وأفكار ، وأحس أن عقلى، ومشاعرى، وحواسى، جميعا فى حالة انسجام تام حين أكتب بالعربية، وأن لغتى هذه تهدينى إلى الكشف عن أقصى الأركان المخبوءة فى ذهنى وقلبى. وأحس كذلك أن لغتى هى سلاحى الذى لا يخوننى فى معركة وجودى، وأن كل كلمة أضيفها فى الكتابة بها تعود بالفائدة علىّ فى نهاية المطاف .

تمضى حياتى فى الجامعة الأمريكية متوازنة- أو شبه متوازنة - على محاور تتلاءم فى أكثرها مع طبيعتى، وأستطيع أن أتفادى فيها كثيرا من المنغصات بالابتعاد عنها دون أن أخل بواجبات عملى. أدرّس لأعداد قليلة ، وهذا يعيدنى إلى الجو الذى تعلمت فيه كل مراحل تعليمى : لقد كان فصلى فى «مدرسة جهينة الأولية» لا يبلغ العشرين تلميذا، ولا أزال أتذكر أسماءهم واحدا

واحدا، وكان كذلك حالى مع السنوات التسع التى قضيتها فى «الأزهر» ، أما دفعتى فى «دار العلوم» فلم تزد بجميع شعبها - وما كان أكثرها - على مائتين وخمسين طالبا، وأما طلاب الدراسات العليا الذين تعلمت بينهم فى «جامعة لندن» ، فقد كانوا حوالى عدد أصابع اليدين. لذا فإننى أعد فترة «الانفجار الطلابى» الذى شقيت بها مدة عملى فى هيئة التدريس فى «دار العلوم» فصلا صاخبا من فصول حياتى، التى ما طاب لها الصخب قط! هنا وسط هذه الأعداد القليلة، أستطيع أن أصل بصوتى العادى إلى مسامع الجميع، كما أستطيع أن أرعى الطلاب واحدا واحدا، فأعرف أسماءهم ، وأحوالهم، وأناقش معهم مشكلاتهم الدراسية، وأستقبلهم فى مكتبى فى أوقات معلومة. وعن هذا الطريق، أعرف كيف تعمل أذهانهم، كما أنقل إليهم طريقة عمل ذهنى ، وأقنعهم فى نهاية كل فصل دراسى بأننى بذلت لهم غاية جهدى، وقدمت لهم خلاصة تجربتى ، وبأننى قادر على تقويم مجهودهم بغاية التجرد والإنصاف ، وراغب فى ذلك .

وفى الجامعة الأمريكية أمضى فى الاطلاع والبحث عن المعرفة، لا يحدنى فى ذلك إلا اختياراتى الحرة ، ولا يوقفنى سوى

حدود جهدى، وحالتى الصحية والمزاجية ، فى جو من الهدوء ، والنظام. والقواعد المرعية. ومع أننى وسّعت من مفهومى لحدود الثقافة والأدب فى قراءاتى ، فلا يزال الشعر هو عشقى الأول ، وأنا أميل فيه الآن إلى «الكلاسيكيات» ، وأراها الكنز الذهبى الذى لا تفنى عجائبه .

ولا يعجبنى أن ترفع الجامعة الأمريكية شعار «التعليم الحر» ثم تمضى فى «تعليب» المناهج «وقولبتها» على نحو يطغى فى كثير من الأحيان علي مضامينها ، ويجعل من الوسيلة غاية. وأنا شخصيا من عشاق الانضباط، والنظام، والحدود، وأرى فى كل ذلك إطارا لازما لتحقيق حرية الفكر والروح. وعلى ذلك فلا أفهم «التعبد» بمنهج فلان أو فلان فى تحقيق أهداف التعليم الحر ، وأسمع عن أساتذة يحفلون بأن تكون سعة الهامش فى الورقة البحثية كذا ، وعدد صفحاته لا ينبغى أن يتجاوز كذا. وحين يزحف هذا «الانضباط» الشكلى إلى المناقشات الأكاديمية أصاب بالفزع ، وبخاصة إذا تزيا هذا بزى «الديمقراطية» ؛ فبوسع أى فرد مثلا أن يرفع يده- والمناقشة فى شبابها!- طالبا إغلاق الباب، والتحول إلى التصويت، فإذا حمل معه نصف عدد الحضور «وواحداً» أغلق باب

المناقشة ، ويخرج النصف الآخر «إلا واحدا» «يمصمص» الشفاه قائلا : أيتها الديمقراطية كم من «التحكم» يرتكب باسمك !

ولا ينغص عليّ حياتي- في الجامعة الأمريكية- بعض الشباب ، من الذين ينصبون أنفسهم معلمين، وكان الواجب أن ينصتوا ويتعلموا، وإنما ينغصها عليّ الذين يستخدمونهم ، ممن لا يملكون في المعرفة جذورا أو فروعا ، ويعتمدون في بقائهم الأكاديمي على قيد الحياة ، على الإثارة ليس غير. وصحيح أنني أستطيع أن أتجنب هؤلاء وهؤلاء ، وأمضي في طريقي ، ولكن هذا التجنب لا يمكن أن يكون كاملا أو دائما ، وعليك أن تدخل بين الحين والحين في مواجهة لا تحبها ، أو مداراة تجعلك تنطوي على قدر من المرارة ، أو ما إلي ذلك مما تحتمه ضرورات العمل . لكن الحياة – مع ذلك – تمضي !

الفصل الثالث

فى الحياة الثقافية

شغفى بالثقافة ، وبالحياة الثقافية، شغف قديم؛ فقد أدمنت القراءة منذ أن تعلمت كيف أقرأ، وجريت وراء الندوات الثقافية والمهرجانات الشعرية منذ أن جئت إلى القاهرة سنة ١٩٥٠ ، فتشربت على مهل ما كان يجرى فى «دار الحكمة» ، و«الاتحاد النسائى» و«جمعية الشبان المسلمين» ، و«جمعية الشبان المسيحيين» ، و«جمعية الشابات المسيحيات» ، و«الجمعية الجغرافية»، و«جامعة القاهرة» ، و«جامعة عين شمس» ، و«دار العلوم» ، و«رابطة الأدب الحديث» ، و«النادى الشرقى» ، و«النادى النوبى» ، و«النادى السودانى» ، و«نادى الخريجين» ، و«الجمعية الأدبية المصرية» ؛ وهكذا لم أترك مظنة يتردد فيها صوت أدبى إلا سعيت إليها فرحا متشوّقا . أما «دار الكتب»- فى مبناها القديم فى باب الخلق - فقد كان لى فيها جولات قراءة صباحية ومسائية امتدت عشر سنوات بدون انقطاع .

امتلأت نفسى وفاضت بما جادت علىّ به القاهرة من ثقافة ومعرفة - وكانت هى فى مجدها وعزها - وذلك حتى تركتها لأكمل

دراستى العليا فى انجلترا سنة ١٩٦٠ . فلما عدت إليها سنة ١٩٦٥ ، مؤهلا بالدكتوراه – وعينت فى «دار العلوم» مدرسا، قدّمنى للحياة الثقافية – أو بالأحرى أعاد تقديمى لها– أساتذة وأصدقاء ، منهم : محمد خلف الله ، ومهدى علام ، ومحمود شاكر ، ويحيى حقى ، وفاروق شوشة ، وفوزى العنتيل، وأبو المعاطى أبو النجا ، والحسانى عبد الله ، ووجدت نفسى أجالس أعلام الأدب والفكر ، الذين كانوا يتربعون على عرش الحياة الثقافية فى الستينيات وما بعدها ، والذين هم التلاميذ المباشرون لجيل الرواد الأوائل .

اختارنى مهدى علام – فى فترة مبكرة جدا – عضوا فى فحص ملفات جائزة الدولة التقديرية ، فجعلنى هذا الاختيار أجلس على مائدة مستديرة مع : زكى نجيب محمود ، ومجدى وهبة ، وسهير القلماوى، وعبد الحميد يونس ، وبنت الشاطئ ، وعبد القادر القط ، وشوقى ضيف. وأتذكر المناوشات التى كانت تقع بين بعض أعضاء تلك اللجنة ؛ فقد رشحت كلية ناشئة فى إحدى الجامعات الإقليمية عضوا من أعضاء اللجنة للجائزة ، فلما اجتمعنا لفحص الملفات أوعز إليه أن يترك الاجتماع فلم يفعل، وزاد فقلل من قيمة ترشيح شخص آخر – لم يكن من أعضاء اللجنة – معتمدا على أن الجهة التى رشحته ليست لها قيمة أدبية، فتصدت له بنت الشاطئ ،

مقارنة بين القيمة الأدبية لتلك المؤسسة ، والقيمة الأدبية للكلية الناشئة التى رشحته فى تلك الجامعة الإقليمية ، وكان اجتماعا مثيرا ؛ رأيت فيه كيف أن أعلام الأدب يتحولون فى مناقشاتهم ، خلف الأبواب المغلقة ، إلى أناس عاديين !

وأتذكر أنه لم يفز بالجائزة فى ذلك العام لاهذا ولاذاك ، كما أتذكر النمو السريع لإحدى هاتين المؤسستين ، وتقرب الرؤساء المتعاقبين عليها من السلطان ، والتوسع «الإعلامى» للأخرى ، وإحداثها مؤتمرًا سنويا سمى باسم رائد من رواد الثقافة ، ينتمى إلى الإقليم ذاته. وهنا أحب أن أتحدث بالتفصيل عن هذا المؤتمر ، وأتحدث عنه حديث العارف ، لأننى دعيت إلى الاشتراك فيه مرة ، ولبّيت ، وكانت مناسبة لم تشجعنى على تكرارها بعد ذلك .

قيل لنا إن السفر إلى ذلك الإقليم سيكون بالأوتوبيسات، التى ستتجمع خلف مبنى الجامعة العربية فى «ميدان التحرير»، وحين وصلت فى الموعد بالضبط ، وجدت المكان غاصًا بالبشر : أساتذة عرب وأجانب ، وشعراء ، ونقاد ، وروائيون، وصحفيون ، وصخب سائد ، ومناداة على أشخاص وأشياء ، ولا شئ محدد ! وبعد انتظار طويل وصلت الأوتوبيسات، وتحرك الركب كالعادة

متأخرا. ولا أنسى أنّ جارى الذى اخترته كان صديقى الراحل عبد المحسن بدر ، كمالا أنسى أن الطريق كان فى قسم كبير منه متربا وغير معبّد ، واحتاج إلى ساعات طويلة. وحين لاحت معالم المدينة الموعودة صعد إلينا من يحمل قوائم بأسماء المدعويين ، وأخذ في المناداة ، محددا لكل مجموعة اسم الفندق الذى ستنزل فيه ، وأرقام أماكن نزولهم . وحين نودى على اسمى وجدتنى اقتسم المكان - على الورق - مع أربعة أعلام، منهم ثروت أباظة ، فأشاع هذا فى نفسى نوعا من الطمأنينة ، مقدرا أن المكان لابد - إذن- أن يكون مكانا لائقا ! وزاد من طمأنينتى - التى سرعان ما تبين أنها وهم من الأوهام - أن اسم الفندق كان من الأسماء العالمية المشهورة .

وصلت القافلة ، وبدأ توزيع الضيوف على الأماكن ، وكانت مجموعتنا تنزل فى آخر فندق - ولم أكن رأيت منهم أحدا فى زحام المسافرين - وأخيرا وقفنا على رصيف متآكل عند مبنى متهالك ، يحمل لافتة ضخمة، كتب عليها اسم الفندق «العالمى» ، وصعدنا على درج متصدّع ، ودفع بنا إلى ردهات خشبية ، تفضى إلى حجرات عارية الجدران ، مرتفعة الأسقف ، متقشفة الأثاث -

أقول الآن حين أتذكرها إنها لم تكن تصلح أبدا للإقامة الآدمية ! ووجدت نفسى الضيف الوحيد الذى لبى دعوة المؤتمر من مجموعتى ، أما الآخرون فقد غابوا جميعا. وهكذا بدأت أدرك معانى بعض الأشياء التى استمعت إليها فى الطريق، وبعض المعانى لغياب الضيوف أصحاب «المكانة» ، ومنهم زملائى فى الإقامة . وعجبت - ولّما استرد أنفاسى- كيف ساغ لصاحب الدعوة أن يجرؤ على دعوة هذا الحشد من شتى البلاد والمستويات - لينزلهم هذه الأماكن ؟! .

ثم كان «حفل الافتتاح» الذى حشر الناس فيه فى قاعة صاخبة لا يسمع فيها أحد أحدا، وسلِّط الضوء على المنصة التى يجلس عليها المسئولون : وزير التعليم ، والمحافظ، والداعى ، وكانت أعين الداعى متعلقة بهاتين الشخصيتين ؛ فلم يَبْد أن دخول هذه الجموع التى دعاها لفت نظره ، ثم كانت الخطب «الدعائية» المعهودة الرنانة ، ثم كان الغداء الجماعى الذى تدافع عليه الناس بالمناكب. ولما كنت أنتمى إلى «ثقافة» يقول قائلها :

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

فقد بقيت منتظرا ، وحين دعيت لم أجد شيئا يؤكل !

فى الليل المتأخر وزعت علينا صناديق ورقية فيها قطع من الدجاج ، لم يبد لى - بمجرد شمها - أنها «مأمونة» ، فأودعتها جانبا ، وبقينا ساهرين ، زَادُنا السخرية ، وتأليف القصائد العابثة، وتحلقنا حول الشعراء الشبان الذين أنشدونا بعض القصائد «الحداثية» الغريبة ، ولم أكد أفتح فمى بأن هذا النوع من الشعر يعز علىّ فهمه ، حتى أوسعنى عضو من أعضاء هيئة التدريس - أصحاب المؤتمر - لوما ، واتهمنى - مجاملة - بأننى لا أشجع الشباب ، مع أننى واثق أن تهمته الأصلية لى كانت عدم الفهم ، فاستأذنت فى الانصراف للنوم ، وكانت معدتى شبه خالية ، كما كان فراشى خشنا ، وذهنى شبه «ملوث» بما سمعته من «الشعر» ، الذى تتكون «القصيدة» فيه من سطر أو سطرين ، يجريان على الورق، دون لون أو طعم ، فى «رطان» لا تستطيع الاعتراض عليه ، دون أن تلقى نصيبك من الاتهام بأنك ضد «إبداعات الشباب» !

فى صباح اليوم التالى بدأت وقائع المؤتمر ، وكان لى فيه بحث عن جانب من جوانب «محفوظ» لا أتذكره ، على وجه الدقة ، الآن ، لكننى أتذكر نقطة وردت فيه ، وألّبت علىّ الآخرين من جديد. كنت أقول - إذا أسعفتنى الذاكرة - إننا إذا تأملنا المكتبة البحثية

حول أعمال نجيب محفوظ سنجد أن الأغلب الأعم منها يتناول نجيب محفوظ الشخص، أو آراءه السياسية والاجتماعية ، أما أسلوبه الروائى فيظفر بنصيب ضئيل . ولم أكن بذلك، فى نظر نفسى ، مبالغا ، دعك من أن أكون متجنيا. كانت المسألة واضحة فى نظرى وضوح الشمس ، وأعتقد – فوق ذلك– أن هذه هى حال «الدراسات المحفوظية» – بل والمناهج الأدبية عامة – حتى يومنا هذا : لا تتحدث «فى» النص بل تتحدث «حوله» ، وهذا يعطل الوصول إلى «هوية» نقدية عربية من أى نوع. وبعد أن قلت هذا بدأت الاعتراضات علىّ ؛ فقال معلق من المعلقين إننى أبالغ فى وصفى هذا ، وإن واقع الحال ليس كما قلت ، وقال آخر إننى «بنيوّى مُتَخفٍ» ؛ ولم أدرك معنى هذا القول عندئذ ، ولا أزال لا أدركه حتى الآن . والخلاصة أن فكرتى لم تلق استجابة واضحة ، وبقيت الكلمات تدور فى الفلك المعهود : مَنْ نجيب محفوظ ؟ وما أثر تخرجه فى قسم الفلسفة علي فكره؟ وما صورة المجتمع عنده ، وبخاصة فى أعماله الواقعية ؟ وهل يمكن استخلاص آرائه السياسية من أعماله؟ وما موقفه من الثورة؟ وهل يمكن التعرف عليه فى سلوك أىٍّ من شخصياته (كمال عبد الجواد فى «الثلاثية» مثلا!)

وما إلى ذلك . وكنت أجلس مستمعا ، متعجبا، قائلا لنفسى : أين نجيب محفوظ الروائى ؟! ثم بلغ الأمر حدا قيل فيه إن نجيب محفوظ لو كتب الرواية «الفلانية» بالطريقة «الفلانية» ، ولم يكتبها بالطريقة التى كتبها بها عليها، لكان أفضل ؛ فلم أتمالك نفسى من الغيظ ، وصحت فيمن قال هذا الكلام : لماذا لا تكتبها أنت؟ وإذا كنت تستطيع أن تفعل أحسن مما فعل محفوظ، فلماذا كان هذا حال محفوظ وهذا حالك؟ وتطرقت إلى عقم هذا النوع من الأحكام الافتراضية. لكننى لم أجد استجابة كافية لكلامى هذا ، بل إن العكس قد حدث ، وانفتح علىّ - بما قلت - باب هجوم جديد !

وكان أن ترأستُ جلسة من جلسات المؤتمر فى صباح يوم آخر. وقد احتشد فيها المتحدثون بالكلام المكرور، مما أكّد عندى أن الوضع البحثى يتراوح لدينا بين «الاجترار» والنشاط «العصبى» ، أما التأمل الهادئ، والتحليل الدقيق، لمادة الأدب الأصلية ، وهى النص ، فأمران بعيدان عن الأذهان . فى تلك الجلسة أصر بعض المتحدثين على أن يظفروا من الوقت بنصيب أو فى من غيرهم ، بحجة صامتة هي أن لهم من مكانتهم ما يعطيهم هذا الحق، وأخذوا علىّ توزيع الوقت على المتحدثين بالتساوى ، وإعطاء جانب ملحوظ منه «للقاعة» توجه أسئلتها وتعليقاتها ، والتزام الصرامة فى ذلك ،

ولم يجدوا معنى لأن تكون مائدة المؤتمر مستديرة ، ولا حققوا حصادا متوازنا للجلسة ؛ فقد كان الكلام كثيرا، والحصيلة متواضعة . أما «العلاقات العامة» فكانت تروّج دائما نجاح المؤتمر.

فى نهاية اليوم جنحنا عن هذه «التظاهرة الثقافية» ، كما جنحنا عن مآدب المؤتمر الجماعية ، وقنعنا بطعام متواضع خاص فى ناد من النوادى ، وساعدنا أنفسنا على «الهضم» بمزيد من القصائد الهجائية الهزلية ، وأخذنا قطار المساء ، دون انتظار للقوافل العائدة ، ورضينا من «الغنيمة بالإياب» ! والذى حدث أن المؤتمر حظى فى السنوات التالية بمزيد من الدعاية والإعلان ، ودخلت أسرة الرائد الثقافى - الذى يعقد المؤتمر تحت اسمه - فى الموضوع ، واختلطت بذلك السياسة بالثقافة ، وأصبح المؤتمر «رائدا» بدوره ، وعلامة من علامات عصر بأكمله فى الترويج {أو الترويح} الثقافى .

أين هذا مثلا من مؤتمر طه حسين الذى عقد فى «غرناطة» بأسبانيا سنة ١٩٩٠، وحضرته بدعوة من أحمد مرسى ، مستشارنا الثقافى فى اسبانيا ، والذى كان مُقاما - كما فهمت - بالتعاون بين المعهد المصرى بمدريد ، وهيئة ثقافية اسبانية لم أعد أذكر اسمها ؟

أعطيت فترة زمنية طويلة لإعداد بحثى الذى أشارك به فى المؤتمر - وكان بعنوان : «مستقبل الثقافة فى مصر - قراءة حرة فى نص تنويرى»، وحين وصلت طائرتنا إلى مدريد كانت هيئة السفارة المصرية كلها فى انتظارنا ، ثم انضمت إليها هيئة المضيّفين الأسبان ، وبقينا فترة فى فندق نظيف وسط «مدريد» ، ومنا باحثون مصريون ، وخليجيون ، وأفارقة ، وآسيويون ، وأوروبيون ، ثم وصلنا إلى غرناطة ، فنزلنا فى فندق عريق ، وتحركنا - حسب الأوقات المعلنة - بين عبق التاريخ والجغرافيا :

فى الليلة الأولى كنا ضيوفا على دار البلدية ، فساد جو من المجاملة الخالية من الإفراط ، وقدم لنا من الطعام والشراب ما هو بعيد كل البعد عن البذخ ، وتحركنا فى جو «عربى/اسبانى» يحيط به الجلال والجمال ؛ فمالت نفسى بجملتها إلى هذا الجو ، الذى كان بالنسبة لى مزيجا ، حلوا مُرًّا ، من الحقيقة والخيال . ولاح «قصر الحمراء» على البعد ، فانتظم الماضى والحاضر فى نسق بديع. وحين زرنا الحمراء ، ظهيرة اليوم التالى ، وتجولنا فى الأبهاء ، والقاعات ، والأروقة ، ودرنا حول النافورة الشهيرة بتماثيلها التى تمج فيها الأسُود المياه من أفواهها ، وهبطنا إلى حدائق «جنة

العريف» انتابتنى مشاعر الزهو بالمجد الغارب ، ومشاعر الحسرة على «الفردوس المفقود» ، ولم أحاول أن أمنع نفسى من الإحساس الشخصى بالعار ، ولا حجزت دموعى من أن تفيض ، وتردد عاليا فى وجدانى بيت الشعر المشهور الذى حفظناه منذ الصغر :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

جرت وقائع المؤتمر سلسة ؛ النهار للعمل ، والليل للترويح والضيافة. وقد تمتعت بخاصة برقص «الفلامنكو» الذى يتم بحيوية بالغة على إيقاع الموسيقى الاسبانية. وثمة ملاحظتان «مأساويتان» أذكرهما ولا أنساهما، الأولى ملاحظتى أن شباب الباحثين من الإسبان لا يخفون حقدهم على فترة «الاحتلال» العربى لاسبانيا ، ولا شماتتهم فى العرب «الغازين» ، ولا حرصهم على إلقاء الأضواء على «حرب التحرير». وقد ساءنى أن أجلس مستمعا فى مرارة إلى هذه «المحزنات» التي تصب فى أذنى عبر الترجمة الفورية ، دون أن أسمع كلمة واحدة ممن يجيدون الاسبانية – وتعلموا فى أسبانيا – وكنت أود أن أسمع كلمة من «دارس عارف» تعيد التوازن للأمور. وأنا لا أقصد بهذا أن يتم نوع من التراشق الدعائى ، الذى هو

أبغض الأمور إلى نفسى ، وإنما كنت أريد أن أسمع كلمة منصفة للعرب ، من أنهم جلبوا معهم حضارة - وإن كانت غازية - لم يأخذوها معهم حين رحلوا ! أما الملاحظة الثانية فهي على مأساويتها لاتخلو من عنصر التسلية :

درج أستاذ ضعيف فى اللغة ، وصاحب وظيفة مرموقة فى السلم الإدارى فى الجامعة ، على طلب التحدث فى المؤتمر بالعربية بسبب ، وبدون سبب. وفى إحدى تلك المناسبات أخذ يتحدث عن افتتاحيات السور القرآنية. وقد استعرض بعض هذه الافتتاحيات مثل : «ألم» ، «ص» ، «طسم» حتى أتى إلى افتتاحية سورة مريم : «كهيعص» ، فنطقها : «كَافْ هَيْعَصْ» ، وكان يجلس إلى جوارى أستاذ الفلسفة أبو ريدة - وهو معرفة قديمة من أيام عملنا معا أستاذين فى كلية الآداب بجامعة الكويت - فلكزنى فى جنبى لكزة قوية ، ولم يعلّق ، ثم نظر لى بغضب شديد. وفى طريق العودة عاتبته - مداعبا - على الألم الذى ألحقه بجنبي ، مع أننى «لم أكن من جناتها» ، فقال لى بمودة : «إذا لم أعبّر عن غضبى إلى «عارف» مثلك - فى أمر كهذا - فلمن أعبّر ؟!

مع مرور الزمن ، طغت السياسة على الثقافة فى المؤتمرات

الأدبية لدينا ، ونجح أسلوب العلاقات العامة فى أن يسود . وقد ترتب على هذا طغيان المضامين على القيم الفنية ، كما ترتب عليه توجيه الجوائز الأدبية لتحقيق أغراض دعائية. وتكريس تبعية الثقافة للسياسة ليس جديدا ، ونحن نشتكى من أول من تكسَّب بالشعر ، كما نشتكى من تملق الشعراء منذ القدم فى بلاط الحكام لطلب الجوائز ، ولكن أن يصل هذا إلى مجتمعنا المعاصر ، ويقوم على تنفيذه أفراد يلبسون «طيلسان» التحرر، والمعاصرة، «والتنوير» ؛ فأمر لا أتحمله ، ولا أجد له تفسيرا ! وإذن فقد فعلنا ماكنا ننكره على الآخرين فى الماضى ، وأضفنا إليه استخدام سطوة الدولة ، وسطوة التكنولوجيا ، وسطوة الإمكانات المادية ، التى تحمل الأدباء إلى هنا وهناك ، بطائرات خاصة ، وتتنافس فى رفع القيمة المادية للجوائز ، وتحاول - إغراءً ، أو قسرا ، أو إهمالا- إدخال الأدب ليكون درعا واقيا للسياسة ، والنتيجة دائما مانرى من صعود السياسة وما تمثله (وفى مقدمته المضامين!) ، وهبوط الأدب وما يمثله (الأساليب !) .

ولا أتحدث عن الثقافة ، وإنما أتحدث عن النشاط الثقافى ، فأقول إنه اختزل - أو كاد - فى مجموعة «الاحتفاليات» ،

«والمؤتمرات» ، «والندوات» ، وهى عادة تجتمع – دون سبب واضح للاجتماع – وتنفض – دون نتيجة واضحة بعد الانفضاض، ولا يبقى منا شاخصًا – إن بقى – سوى صفحات منشورة فى بعض «الإصدارات» ، بطريقة شبه عشوائية ، أو بضع مقابلات سطحية فى الإذاعة والتليفزيون ، من ذلك النوع الذى يتم «على هامش» النشاط ، أو تلك البطاقات التى تطبع «للسجل» ، وتقدم دليلا على «النشاط» . تلك هى المظاهر التى تقدم بديلا عن الخطط الثقافية الطويلة المدى، المرسومة بعناية ، والقائمة على ركائز المعنى الثقافى الحقيقى ، وجذورُه تعليمٌ متين ، وفروعه معرفة رشيدة ، وثماره وعى حضارى .

ولأن نشاطنا الثقافى نشاط عصبى ، فإن نتائجه – من جنسه– نتائج عصبية. وأنا أشير بهذا إلى مؤتمر من المؤتمرات الأدبية، تصادف انعقاده وأنا أكتب هذا الجزء من سيرتى الذاتية ، وأدير على ذات النحو الذى يشتكى منه دائما : أُلِّفت فيه لجنة لفحص جائزته «الكبرى» لم يكن مقنعا لأحد – حين أعلن عن أسماء أعضائها– أنهم – بالضرورة– أصلح الأعضاء لأداء المهمة؛ إذ فيهم من لا علاقة له بالموضوع ، وفيهم من انقطعت علاقته

بالبحث الأدبى منذ زمن بعيد، وفيهم من كان مجرد واجهة. واختارت اللجنة للجائزة الكبرى روائيا لم يكن من وجهة نظر الحياة الأدبية بالضرورة أفضل الروائيين ، ولا كان واضحا على أى أساس تم الاختيار. ولما كان الجزاء من جنس العمل ، وأن «المعنى الخبئ» له «رد فعل خبئ» ، فقد رفض ذلك الروائى الجائزة مبديا أسبابه ، وكان لرفضه آثار مدوّية . وأقطع - من موقع المراقب الصامت - أنه لا الأدب ، ولا الثقافة ، ولا صناعة القراءة ، ولا صناعة الكتابة ، ولا ازدهار الأنواع الأدبية ، قد استفاد شيئا مما حدث ، بل إننى - على العكس - أرى أن ما حدث تسبب فى ضرر محقق ، وأن المعانى التى أريد لها - ظاهرا على الأقل - أن تتقدم بانعقاد مثل هذا المؤتمر ، قد عادت إلى الوراء . وسيبقى النقاش دائرا لكن على مستوى الخصومات السياسية ، والأيدلوجية، ومعنى هذا أن الجوهر مطمور ، والحقيقة مسكوت عنها، والحركة عصبية عشوائية ، والشعارات متصاعدة ، وسوق الثقافة والأدب في كساد .

تعرفت على شعراء العصر من خلال عضويتى فى لجنة الشعر، ولجنة الدراسات الأدبية «بالمجلس الأعلى للثقافة» ، منذ أن

كان اسمه «المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية» ، ولكننى لم أتبين مهمة تلك اللجنة بالضبط فى أى وقت من الأوقات ! كان عهد الأمسيات الشعرية «الجماهيرية» قد ولى ، لكن بعض الشعراء كانوا لا يزالون متشبثين بتلك الصيغة ، ولم أكن أدرك المتعة التى يحققونها من إنشاد شعرهم لمجموعة من الأفراد جاء معظمهم مجاملين . وقرأت «ركاما» مما كانت تسميه لجنة الشعر بمسابقة الشعراء الشبان ، ولم أجد فيه صوتا واحدا يمكن أن يصلح نواة لشاعر عظيم ؛ فعرفت أن المسابقات - مهما كانت قيمتها - لا يمكن أن تكن طريقا للبحث عن «مشاريع» الشعراء . واشتركت على مدى سنين طويلة فى اللجنة التى كان يوكل إليها اختيار الفائزين بجوائز الدولة التشجيعية فى الشعر، فكنا أحيانا كثيرة نصفّى ونصفّى حتى لا يبقى بأيدينا شئ ، وكنا أحيانا نبحث عن شاعر يصح أن نوعز إليه بأن يتقدم على أن تضمن له الجائزة فلا نجد، إلى أن أخبرنا أن ذلك منحى خطر؛ فقد تمنح الجائزة لشخص ، ثم يلومنا على ذلك بحجة أنه أكبر من الجائزة ! ثم خطت لجنة الشعر خطوة فجعلت الجائزة جائزتين ، إحداهما للشعر الفصيح ، والأخرى للشعر العامى ؛ فما أجدى ذلك نفعا ، ولا جلب

شعراء جيدين ، واليوم تغازل اللجنة «قصيدة النثر»، ويبدو أنها فى ذلك يئست من الشعر جملة ، وأقول إنه حتى لو بدا الآن أن بعض العقبات توضع فى طريق «قصيدة النثر» فإن انتصارها - فى ضوء ما هو حادث فى الحياة الأدبية - ليس بعيدا !

إن الثقافة لايمكن أن تزدهر فى جو اللوائح الرسمية، التى تحتفظ بالميزانية فى يدها ، وتوزعها بقرارات سيادية. أما المسئولون فهم دائما يقولون إنها مزدهرة، وإنها بلغت ازدهارها الحقيقى نتيجة لجهودهم هم أنفسهم ، وإن العمل الجماعى - لا الفردى- هو المطلوب فى المجال الثقافى ، وإن البديل هو الفوضى وإن الإمكانات العامة هى الإمكانات الوحيدة القادرة على تمويل ورعاية الإنجازات الضخمة . أما القلة التى تنتقد ذلك - وهى دائما عند المسئولين «قلة» - فهى العاجزة ، أو المتخلفة ، أو الحاقدة ، التى يحلو لها دائما أن تغرد خارج السرب ! وأتذكر اليوم الذى دعينا فيه على عجل لنصل بتصويت جديد إلى اسم ، يراد له أن يحصل على جائزة، لم يكن التصويت الأول يضمنها له، كما أتذكر اليوم الذى فرض فيه علينا اسم «مقرِّر» جديد ، كان من المفترض أن يتم اختياره بطريقة الانتخاب ، بحجة «عدم إضاعة وقتنا» !

أعود فأقول إن دعاة التجديد والتنوير والحداثة ، يشتكون عادة من التخلف الذى ترزح تحته ثقافة الماضى، متهمين إياها بأنها ثقافة رسمية أُحادية انتقائية، تقدم الشعراء المدّاحين الهّجاءين (جرير والفرزدق والأخطل) على من يعكفون بعيدا على تجويد فنهم (ذو الرمة والراعى والقطامى) ، فانظر ماذا يفعل هؤلاء الدعاة أنفسهم – وقد آل إليهم الأمر فى عصر الانفتاح والحرية والديمقراطية؟ ألست تراهم يتبعون النهج ذاته؟ وما الفرق مثلا بين ما كان سائدًا فى الماضى– على فرض صحته – وبين اختيار المقربين، وتثبيتهم على قوائم النشر، وفى عضوية اللجان ، وفى السفر أو الاستضافة فى المؤتمرات؟ وألست تسمع معى الطبول التى تقرع لنصوص أدبية هزيلة لمجرد أنها تعالج شخصية أنثوية مقهورة ، أو أفكارا سياسية فجة ؟

هكذا وجدت نفسى أفقد بالتدريج حماستى القديمة للمساهمة فى الحياة الثقافية الرسمية ، وذلك بعد أن رصدتها ، من الداخل ، فوجدتها تتحرك باطراد من السيئ إلى الأسوأ. وكنت دائما أرفع صوتى بما أعتقد أنه صوت الحق فى وجوب التصدى لعوامل التردى ، والوقوف إلى جانب عوامل الإصلاح ، لكننى – ومعى

أصوات قليلة جدا لا يمكن أن تكون كافية لتحقيق الإصلاح - لم ألق أية استجابة . على أن «الأغلبية الصامتة» - التى لا تساعدك حين ترفع صوتك ، وتطرى هذا الصوت إذا انفض الجمع - هى أسوأ ما صادفنى فى الحياة الثقافية . ثم استحدثت أساليب جديدة- مع دخول الأجيال الجديدة - فارتفعت درجة «العدوانية» ، وانعدم الأسلوب الملائم فى « أدب البحث والمناظرة» .

وقد جرّبت طويلا ، قبل أن أقرر القطيعة ، أن أسهم صامتا فى الاجتماعات الثقافية ، ولكن حتى ذلك لم يقبل منّى ، وفسرّ صمتى لغير صالحى. وطالما حُثثت على الكلام ، فلما تكلمت لم يقبل كلامى - كأنه آت من عالم آخر - وكان ذلك بداية لنقاش عنيف. وقد استقر فى وجدانى آخر الأمر عدم جدوى العمل الثقافى الرسمى، وذلك لأن الثقافة - كما أشرت - تتطلب حرية كاملة ، والرسميات تضع دائما قيودا على هذه الحرية .

وما لقيته بعد ثلاثين عاما من الإسهام الثقافى الدائب فى اللجان الثقافية الرسمية ، لقيته فى وسائل الإعلام ، من الإذاعة، والتليفزيون ،والصحافة . لقد كنت منذ شبابى المبكر ألقى أشعارى على المنابر الثقافية المحدودة التى كانت متاحة آنذاك ، كما كنت

ألقيها فى الإذاعة المصرية من مبناها القديم فى «الشريفين» ، فلما تقدمت بى الحال قليلا ، وأصبح اسمى معروفا فى الدوائر الأدبية ، دعيت إلى الاشتراك فى الندوات الثقافية فى «دار الأدباء» ، والكليات الجامعية ، وفى برامج إذاعية عدة. وقد وجدت نفسى أولا فى «البرنامج الثقافى» – وكان اسمه «البرنامج الثانى» – متحدثا فى ندوات مع أساتذة معروفين أمثال عبد العزيز الأهوانى ، وشكرى عياد ، ومصطفى ناصف، وعبد القادر القط، ومع زملاء لى من شتى الاتجاهات الفكرية ، وناقشت أعمالا أدبية لمبدعين من أجيال مختلفة ، كما نوقشت كتبى فى برامج وندوات إذاعية.

وحين اتسعت مشاركتى فى البرامج الثقافية فى الإذاعة ، دعيت على مدى سنوات لأشترك فى تقديم «الأدباء الشبان» فى الإذاعة ، وكانت هذه فرصة سانحة لى ، أتعرف فيها على المبدعين الواعدين من أبناء بلدى ، وأتذكر الأيام التى كنت أنا نفسى فيها «أديبا شابا» ، أبذل من روحى بسخاء فى سبيل أن أكون شيئا «ثقافيا» مذكورا. وكنت أجرب النهج النقدى الذى ارتضيته ، وهو مقاربة النص الأدبى على نحو من «القراءة الفاحصة» التى تذهب بعيدا فى تضاعيفه ، ولا تفرض عليه – فى الوقت ذاته – مالا يتفق

مع طبيعته باعتباره كيانا لغويا روحيا. ولا أذكر أننى فقدت صبرى قط وأنا أعمل من أجل الإسهام في إرساء هذا المنهج، ولا رأيت أن منهجا سواه جدير بالاتباع . لكن شيئا جدّ على أسلوب العمل فى هذا البرنامج وغيره من البرامج التى كنت أرتاح للاشتراك فيها؛ فبعد أن كان يقدم لى العمل الإبداعى ، ويتاح لى الوقت الملائم لقراءته ، وينظم لى وقت التسجيل بدقة ، وأُستقبل ثمة استقبالا حسنا، أصبح يطلب إلىّ أن أختار أنا من قراءاتى ما أقترح على القائمين على البرامج تقديمه فيها. وقد يؤخذ هذا على أنه ثقة بالغة فى اختيارى ، أوعملا على راحتى ، ولكننى وجدت نفسى بالتدريج أفقد حماستى ؛ وذلك بسبب أننى اعتبرت ذلك تكاسلا من القائمين على البرامج، أو اهتماما غير كاف بالعمل ، فتزحزح هذا النوع من النشاط عن مركز اهتمامى ، ثم انقطعت صلتى به مع مرور الزمان.

ومن ناحية أخرى اتصلت ببرنامج «حديث السهرة» ردحا طويلا ، وقدمت فيه عددا كبيرا جدا من الأحاديث، شملت أفكارا واسعة ، وأنواعا أدبية مختلفة ، وشخصيات فكرية ، وأحوالا وقضايا ثقافية ، وكنت أسعد حين أسمع أن أهلى وعشيرتى يتحلقون حول المذياع فى «جهينة» ، ليستمعوا إلى أحاديثى، وأنى

أسهم بذلك فى رفع الروح المعنوية لشباب طموح، متطلع ، قليل الإمكانات ، فى مسقط رأسى. وأتذكر من هذه الأحاديث الكثيرة أحاديث بعينها أعدها قريبة إلى قلبى ، كما كانت قريبة إلى عقلى، منها أحاديثى عن «حياتى» لأحمد أمين، «والأيام» لطه حسين، «وأنا» للعقاد ، و«تجربتى الشعرية» للبياتى، و «رحلة جبلية- رحلة صعبة» لفدوى طوقان ، و«حياتى فى الشعر» «لصلاح عبد الصبور، «والمتنبى» لمحمود شاكر ، و «خطوات فى النقد» ليحيى حقى ، و«دراسة الأدب العربى» لمصطفى ناصف ، و«تربية سلامة موسى» و «شعر أبى ماضى» ، و«شعر على محمود طه» ، و«شعر محمد الفيتورى». وحين كانت تذا ع أحاديثى الأسبوعية لقينى زميل من زملائى فى كلية الآداب فقال لى بصوت محايد : إنك تلقى حديث السهرة من البرنامج العام فى الساعة التاسعة كما كان يفعل طه حسين ؛ فلم أدر إن كان يمدحنى ، أو يستكثر علىّ ذلك! وهكذا انعقدت «صداقة» طويلة بينى وبين «الإذاعة» ؛ فزارتنى فى مكتبى ، وقدمت مكتبتى في البرنامج المعروف «من مكتبة فلان» ، وطَلَبْت إلىّ ، أكثر من ذلك ، أن أقدم للمستمعين أغانى كلاسيكية «على ذوقى» ، فقدمت قصائد أحبها لأم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وفيروز ، ورياض السنباطى ، وياسمين الخيام .

ثم أحكمت الإذاعة حول نفسها طوقا أمنيا قاسيا. ورأيت أنا ذلك غريبا من مؤسسة قائمة على «البث» ، محتاجة إلى الآخرين من خارجها ، تدعوهم إلي المجئ إليها ، ثم تسرف فى التضييق عليهم – باسم الأمن – ليؤدوا لها خدمة «تحت تهديد السلاح» لقد كنت أضيق بذلك أشد الضيق ، وأعترض دائما على الوقوف طالبا العبور من البوابات الالكترونية المحكمة. وكان «حجزى» واحتجاجى يتسبب فى كثير من الحرج لمن يستضيفوننى. وفى ليلة وصلت مع الإذاعة إلى القشة التى قصمت ظهر البعير» ؛ فقد أصر المسئولون على الأمن على حجز بطاقة هويتى، وتعليق بطاقة بديلة عنها على صدرى، حتى ينتهى التسجيل ، فرأيت ذلك أجراء تعسفيا ، ولم أقبل به. وصحيح أن مضيفى أنقذنى فى الوقت المناسب ، ولكننى أحسست منذئذ أن همتى فترت فى التحرك نحو الإذاعة ، وشيئا فشيئا قادنى ذلك إلى الاعتقاد بعدم جدوى ذلك الذهاب.

ولم تكن الإذاعة المصرية هى الإذاعة الوحيدة التى تعاملت معها ؛ فقد كانت لى أحاديث فى هيئة الإذاعة البريطانية ، وكان لهم مكتب فى حى «المهندسين» فى القاهرة كنت أسجل فيه أحاديثى باستمرار . فلما زرت «لندن» فى المرة الثانية دعانى «منير عبيد»

للحديث عن كتب وشئون ثقافية فى برنامج له كان يقدمه من الإذاعة ذاتها. ولم أتنبه إلى الفرق بين البث من إذاعة كإذاعة «القاهرة» وأخرى كإذاعة «لندن» إلا حين انهالت علىّ الرسائل ، إثر إذاعة مقابلة طويلة معى أجراها «فاروق شوشة» فى إذاعة لندن ، تطلب نسخا من كتبى ، وتستشيرنى فى بعض الشئون الأدبية ، وبلغ ذلك حدا طلب فيه منى مستمع من شمال أفريقيا أن أبحث له عن ناشر لرواية ترجمها عن الفرنسية ، وأرسل لى نسخة من الترجمة !

أما تعاملى مع التليفزيون فيرجع فى بداياته إلى تفكير «فاروق شوشة» فى تقديم برنامجه الذى أصبح معروفا وهو «أمسية ثقافية». دعانى للاشتراك فى أول حلقة من حلقات هذا البرنامج منذ سنوات طويلة ، فالتقيت بأعلام ثقافة العصر ، ثم عاصرت شتى مراحل تطور «الأمسية» ، وشاركت فى كل تلك المراحل. وكانت «الأمسية» تأخذ ضيوفها المتعددين فى البداية واحدا واحدا ، ثم أصبحت تستقبلهم مجتمعين فى شكل ندوة ، وهى الآن – فى طورها الثالث– تستقبل ضيفا واحدا للوقت كله في معظم الأحيان . وكان «لفاروق شوشة» برنامج تليفزيونى آخر يبث خلال شهر رمضان فقط، ويحمل – بالطبع– طابعا روحيا. ومرة دعانى إليه،

صحبة أستاذة فى معهد الموسيقى ، وطلب إلينا أن نتحدث إليه فى قصيدة «جبل التوباد» التي لحنها محمد عبد الوهاب من شعر أحمد شوقى ؛ فبدأت الحديث عن موسيقاها الشعرية ، وتتبعت نمو هذه الموسيقى فى موجاتها الصاعدة حتى ذروتها ، وكيف أن هذه الذروة انحلت على سواحلها. وحين جاء دور الأستاذة لتتحدث عن موسيقى اللحن استخدمت مصطلحاتها الموسيقية، ولكنها قالت إن ماليها عن اللحن لا يخرج كثيرا عما قلته فى موضوع موسيقى الكلام ؛ فسرّنى قولها؛ لأنه أكّد لى ما كان خاطرا عميقا عندى، وهو أن الفن –– مهما تعددت أنواعه – ينبع من منبع واحد.

ولابد أن يكون تكرر ظهورى فى برامج «فاروق شوشة» التليفزيونية هو الذى لفت نظر بعض مقدمى البرامج الأخرى إلىّ ؛ فسرعان ما بدأت أتلقى دعوات منهم لبرامج متفاوتة القيمة. وأتذكر الليلة التي دعيت فيها للاشتراك فى برنامج عن محمود حسن اسماعيل ، وجلستْ المذيعة، في كامل هيئتها تتلو أسئلتها علىّ من ورقة فى يدها المرتعشة ؛ فقارنت – فى سرى – بين مستوى الحوار الثقافى هنا وهناك ، وأحسست نحوها بنوبة عارمة من الإشفاق !. وفى الكويت دعيت إلى الاشتراك فى حلقات أدبية تليفزيونية تقدمها مذيعة ، كانت لامعة ، لأنها قدمت الحلقة

المشهورة مع طه حسين فى بيته، وكانت تجلس معنا قبل التسجيل، وتستخرج منا المعلومات ، ثم تعرضها أمام الكاميرا ، فكأنها نتيجة جهدها الخاص. وكان هذا يضيّق مجال القول أمام الضيوف، كما كان يدهشنى حين أقارن بين حالها قبل التسجيل - تلميذا يتلقى المعلومات - وحالها خلاله - أستاذا متمكنا فى الموضوع !

وقد انتهى بى الإحساس إلى أن أمور الثقافة فى الإذاعة والتليفزيون ليست بأفضل كثيرا من حالها فى وزارة الثقافة ، وأن شخصا مثلى ليس مدرّبا على مراعاة اعتبارات ما ينبغى أن يقال ، ومالا ينبغى أن يقال - ولا يريد أن يحصل على هذه الدربة، لا يمكن أن يجد راحته الكاملة فى منبر من هذه المنابر؛ فكلٌ ميسر لما خلق له. لقد استقر فى يقينى أن حجم الحركة في هذه المجالات ضيق ، مهما ادُّعى أنه واسع، والذى أتيحت له الفرصة للمقارنة بين مالدينا وما لدى الآخرين - ممن يجب أن نتطلع إلى مستواهم - يدرك، على وجه الدقة ، ما أريد أن أقول . وأنت تحس فى معظم المناقشات الدائرة لدينا أنك أمام فكر واحد، يتجه اتجاها واحدا ، وإن بدا فى السطح - نظرا لتقسيم الفريق الواحد إلى فريقين بطريقة اصطناعية - أنك أمام فريقين .

أما الصحافة فقد استخدمتها - على نحو ضيق - وذلك لاعتقادى فى ضرورة التمييز بين النهج الأكاديمى ، والنهج الصحفى . وكنت - ولا أزال - أعلن دهشتى من تهافت بعض «الأكاديميين» على الصحافة ، وحرصهم على أن تكون بابا لشهرتهم . وهم لا يرون طريقا آخر للشهرة - ومن ثم «التميز» - سوى تسريب أخبارهم للصحف ، وتعرضهم لها لتستفتيهم فى الأمور الجارية . وهذا يضع عندى علامة استفهام على كل من «الأكاديميين» «والصحفيين». وما أبرئ نفسى ، وإن كان وجود اسمى فى الصحف محدودا جدا إذا قيس بمن تظهر أسماؤهم وصورهم فى الصحف السيارة بصورة منتظمة ، ويجيبون عن أسئلة مفتعلة ، وتُصَف وجوههم فى «طابور عرض» غير مفهوم عندى. وقد رأيت بنفسى الانحياز الصحفى «للشلة» «والقبيل» ؛ فقد يشترك عدد من الناس فى ندوة ، فتجيء التغطية الصحفية من شتى «الشلل» - ولا أقول الاتجاهات - ليغطى كلُ كلام المتحدث الذى ينتمى إلى «شلته» ويعمّى على من عداه. ولست فى حاجة إلى القول إن اسمى دائما كان يقع فى دائرة «التعتيم» ، وذلك لأننى لم أنتم فى حياتى «لعصبة» أو «جماعة» ثقافية . لكننى كنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من السؤال الطبيعى : ما الذى يمتاز به كلام زميلى

الذى نُوّه به عن كلامى الذى سُكتَ عنه؟ وكيف أُعْطى هذا الصحفى – وقد يكون مبتدئا ليست له قدرة على الحكم على قيمة الكلام – الحق فى أن ينوه بأقوام– على هذا النحو – ويسكت عن أقوام؟ وهل هذا في مصلحة الحياة الثقافية؟ ومن أى باب يمكن أن يكون ذلك ؟

ولست أتردد فى التركيز على الخلل الواقع فى هذه الناحية من الحياة الثقافية الصحفية، ولا فى التعبير عن الخسارة الفادحة التى نجنيها من وراء ذلك : وأنا لا أخشى فى ذلك لومة لائم، كما أننى لا أحفل بأن يقال عنى إننى أشتكى من عدم اهتمام «الصحافة الأدبية» بى. وثقتى كاملة فى أن أحدا لا يمكن أن يتهمنى بالتجنى ، وذلك لأن كل من يعرفنى يعلم عنى أننى لا أطلب شيئا من أحد فى هذا الصدد ، فضلا عن أن ألح فى هذا الطلب ، وأنه ليست لى خصومة أصفيها – بهذا الكلام – مع أحد ، وأننى لا أعانى من أزمة نشر ، فلدى ناشر كتبى الذى يلبى حاجاتى فى الناحية الأكاديمية ، ولم أرسل مقالا إلى جهة فتجاهلته ، بل إننى – على العكس – أرد كثيرا من «الملاحقات» الصحفية ، وذلك لسبب أشرحه فيما يلى :

يتصل بك صوت في موعد غير ملائم من الليل أو النهار ، ويقدم نفسه – في ثبات وجرأة – على أنه من جريدة كذا، أو من مجلة كذا، ويسألك سؤالا اختاره هو ، أو اختير له، ويطلب منك إجابة فورية ، ويحدد لك الحيّز الذى توضع فيه تلك الإجابة ، فإذا اعتذرت عن عدم استطاعتك تلبية رغبته بشروطه ، وأبديت استعدادك – مع ذلك – بالتعاون في حدود الأعراف التى تراها أنت جديرة بأن تكون مرعية ، كأن تُعْطى وقتا تقدّره أنت ، وأن ينشر ما تقوله دون تعديل ، انصرف عنك هذا الشخص ، وغالبا ما ترى الموضوع بعد ذلك منشورا بإجابات مبتسرة للزملاء ، وصور مرصوصة بطريقة أراها أنا مخلة بمكانة الأساتذة .

ويشاع أن وراء كثير من الكتاب المعروفين صحفيين غير معروفين. أما ما نقرؤه كثيرا من شكوى المبدعين من عقم النقد الأدبى ، فأكثره معناه أن النقاد لا يقفون منتظرين فيض إبداع الكتاب ، ولا يسبحون بحمدهم . وهكذا يجرى المتطلعون من الكتاب وراء الشهرة عن طريق صغار النقاد ، كما يجرى المتطلعون من الأكاديميين المتطلعين للشهرة وراء صغار الصحفيين. ومن الواضح أن هذا الوضع البائس لا يمكن أن يتسبب فى الازدهار

الثقافى. والواقع أن مجمل النشاط الثقافى يكاد يقتصر الآن على تلك «الرغوة» المتكونة من ردود الأفعال اليومية ، وعلى ذلك النشاط اللحظى ، والحركة «الاستهلاكية» المتمثلة فى البرامج الثقافية فى الإذاعة والتليفزيون ، ثم ما ينشر فيما يسمى «الصفحات الأدبية» فى الصحف ، مضافا إلى ذلك تلك الضجة المحمومة الحاصلة من «الندوات» ، «والمؤتمرات» ، «والمهرجانات» «والاحتفالات». وأرجو أن أكون واضحا ، حين أسوق الحديث عن «مجمل النشاط الثقافى» ؛ إذ لا يمكن أن يبلغ بى الحال حدا يكون حكمى فيه هذا منصبا على «الجميع» . ولو كان حكمى على «الجميع» لا «المجموع» ، ماترددت فى إعلان ذلك ، ولو فعلت ذلك لكان دليلا على فقدان الأمل ، ولو فقدت الأمل ، لكففت عن القراءة والكتابة ، ولكننى لا أزال أقرأ وأكتب ، وما أفعله الآن هو خير برهان على ذلك.

دعانى الواجب المهنى أن أقدم حلقة من حلقات البرنامج الثقافى فى الجامعة الأمريكية ، وكان ضيفها صحفيا معروفا ، فاحتشد له الناس. وقد اقترحت عليه أن تكون جلستنا فى قاعة «ايوارت» ، وهى تتسع للمئات ، فأصر على أن تكون فى «القاعة

الشـرقـيـة» ، وهـى لا تتـسـع إلا للـعـشـرات . وانتـابنـى القلـق من المشكلات التي قد تطرأ نتيجة التكدس فى مكان ضيق ، وعجبت كيف يفضّل هو تعب الضيق على راحة السَّعَة ؛ فعاودت الرجاء ، وعـاود هو الإصـرار ؛ فلم أجـد وسـيلة سـوى اللجـوء إلى مـدير العلاقات العامة في الجامعة – وكان أيضا صحفيا معروفا ، وصديقا لى مقربا – معربا عن مخاوفى. وقد استقبل قلقى بضحكة طويلة ، ثم شرح لى ما غمض علىّ : إن ضيفنا يصر على المكان الضيق ، ليبدو التزاحم عليه واضحا ، وليُعْلم كلُّ شخص ينصرف خارجا – لأنه لم يجد مكانا – كلَّ شخص يأتى داخلا ، ألاّ موضع لقدم . ذلك خير عنده من أن يجلس كلُّ أحد مستريحا فى قاعة «ايوارت» ، وتغلق الأبواب ، فلا يعلم أحدٌ من الذى يحاضر خلف الأبواب المغلقة . ولا أكتم القارئ أن تفسيره ، والذى وثقت فى صحته لأننى لم أر تفسيرا غيره، وضعنى فى غيظ مكتوم . وقد جرت الوقائع عادية ، لكن الظروف رمت لى فى آخرها بهدية – أعوذ بالله من شر نفسى !– وجدتها كافية للتخفيف عنى : فجأة تصدت للضيف الكبير – الذى كان محسوبا على اليسار – طالبة دقيقة الجسم ، متوقدة العينين ، وسألته فى حَسْم : إذا كان

دستورنا ينص على أن دين الدولة الإسلام ، فلماذا لا نطبق حدود شرع الله كما ينص عليها الإسلام ؟ رد الضيف قائلا فى شبه استخفاف بالطالبة السائلة : لأننا لا نريد - بتطبيق حد السرقة مثلا - أن نتحول إلى أمة من مقطوعى الأيدى . فعلقت الطالبة فى حدة ، وسرعة ، وسخرية : هل تريد أن تقول إننا جميعا أمة من اللصوص؟ هنا صفق لها الجمع طويلا ؛ فقد كان واضحا أنها كسبت الجولة ، في حين بقى هو صامتا !

ولا جدال فى فضل الصحافة على الثقافة ؛ فصناع الثقافة الحديثة جميعا استخدموا هذا المنبر العجيب : طه حسين ، والعقاد، والمازنى ، وهيكل ، وسلامة موسى - والبقية . ذلك شئ لا يمكن انكاره فى السياق التاريخى الذى كان فيه . لكن ذلك لا يلغى أن المشهد الماثل أمامى فى زماننا هو ما وصفته ، وأنه يلقى الضوء - ظلما- على عناصر ليست هى أفضل مالدينا ، ويحجبه عن عناصر هي خير منها؛ فهو يهمل أعمالا من حقها أن تظهر ، ويحتفى بأعمال من الواجب أن تختفى، وهو يجبر الكثيرين على العمل الثقافى الصامت فلا يستفيد منهم المجتمع الاستفادة الكافية، وقد يهاجرون خارج الحياة الثقافية برمتها . وما أقوله

معروف لكل أحد، وهو يتزايد باستمرار . ويمكن أن يضاف إلى جملة المثبطات حديث «الجوائز» - مرة أخرى- والسفر فى «المؤتمرات» ، وتسهيل أحوال «النشر» ، وهذا كله واضح للعيان فى تلك المجموعات «المنتخبة» في كل ناحية ، تعوم دائما على السطح ، وتصطدم بك أينما حللت ، ويزدحم بها المشهد دائما ، فهى لا تمل من التمكين لنفسها ، والاجتهاد فى نفى من عداها .

والمقارنة بين الحاضر والماضى - فى أمر الصحافة والثقافة - تضعنا أمام واحد من خيارين لا ثالث لهما ؛ فإما أن نسلم بأن الماضى كالحاضر ، وأن الذين جاءتنا شهرتهم من الماضى - ممن شكلوا الواقع الثقافى لعصرهم ، وأثّروا بالتالى فيمن بعدهم - لم يكونوا بالضرورة أفضل ما جادت به قريحة العصر ، وإما أن نقول إن تغيرا نوعيا حدث فى قيم المهنة ، ووسائل استخدمها ، كما حدث فى معنى الثقافة ، والمؤهلات اللازمة لها. وقد نقول - دون تردد - إن هذه الأسماء اللامعة التى وصلت إلينا من الماضى عبر قنوات من بينها الصحافة ، قد نجحت فى استخدام «آية العصر» استخداما لصالحها ، وأن ذلك لا يستبعد أن تكون نجحت على حساب غيرها . نقول ذلك دون أن

نجحد قيمة هذه الشخصيات فى ذاتها ، أو ننقص من قدرها ؛ لكننا نشير إلى احتمال «التعتيم» على شخصيات كانت لها القيمة ذاتها أو أكثر .

ومن الواجب أن نشير – فى هذا الصدد– إلى أن كثيرا من أعلام الأدب والثقافة فى الماضى القريب كانوا كذلك أقطابا حزبيين ، فقدمت لهم الصحافة الحزبية منابر للقول لابد أنها لم توفرها – بالعدل والقسطاس– لغيرهم. كان العقاد – كما هو معروف – قطبا «وفديا» ، وكان طه حسين قطبا «دستوريا» ، ثم «وفديا» ، وكان هيكل زعيما للأحرار الدستوريين. وقد شهد أبناء جيلي طرفا من اختلاط السياسة بالثقافة ، وكان واضحا أن البعيدين عن الحلبة السياسية ليس لهم نصيب من الضوء المسلط على الحزبيين ، وإن كانوا أصحاب مواهب أدبية وثقافية لا تنكر .غير أن التكملة الطبيعية لهذا الحديث أنه لا يوجد حزب سياسى يسعى إلى الوصول للحكم يستخدم خامات أدبية ضعيفة ، وأن فضل الحزب على الأديب – وقتذاك – لم يكن يفوق فضل الأديب على الحزب ، وأنه مهما يكن من أمر فإن العقاد يظل هو العقاد ، وطه حسين هو طه حسين ، وهيكل هو هيكل، وتلك هى الحقيقة الموضوعية عندى ،

التي لا تنكر قيمة هؤلاء ، ولا تسيّدهم فى الوقت ذاته - دون فحص - على أقرانهم . ولقد أدهشني - وهذا استطراد - أن شاعرا تقدميا قال عن طه حسين - فى مقال نشر حديثا جدا فى «الأهرام» - وهو في معرض الكلام عن تمثاله الهزيل- ما معناه إنه نموذج الحاضر والمستقبل ، فقلت لنفسى : إذا رضينا - وكل الشواهد تساعد على ذلك - أنه نموذج الحاضر ، فكيف يمكن القطع - ونحن تقدميون!- بأنه نموذج المستقبل ؟

نحن نعيش فى زمن تمتلك فيه الدولة الصحافة ، ومعظم بقية وسائل الإعلام . ثم إننا عشنا في ظل «اللاحزبية» زمنا، فلما جاءت جاءت مفرغة من مضمونها. وماذا تقول فى حزب يتلقى دعم الدولة، وله صحيفة ناطقة باسمه تخوض فى الثقافة ، ورئيسه يخوض فى تفسير الأحلام ، وقراءة الكف؟ لقد أصبحت الصحف بالمصالح الحكومية أشبه ، وانقضى العهد الذى كان يقال عنها فيه إنها «مرآة الأمة» «وصوت الحقيقة» «وآية العصر» ، وتجربتى تخبرنى أن كثيرا من شباب الصحفيين يحتاجون إلى «تعليم أساسى» ، ولكنهم يتحدثون بنبرة من جاء يعلم الناس أمور ثقافتهم ، وهم يخلعون على الناس صفات ما أنزل الله بها من سلطان - مدحا أو قدحا-

ويرددونها حتى تصبح صفات مستقرة. وبعض الألقاب «التفخيمية» تبدأ عادة كأحاديث المقاهى ، التي لا يمكن فحصها فضلا عن نفيها، ثم تصبح ضيغا متكلسة مستقرة ؛ فهذا «شاعر كبير» ، وهيا «ناقد كبير» ، وهذا «روائى كبير» ، ويعلم المتدبرون الصامتون أنها ألقاب «صحفية» ، وأنه يصدق عليها - مادامت لم تمحص ولم تصدر من «أهل حل أو عقد» ، أو ممن له مصداقية - أنها «ألقاب مملكة فى غير موضعها». أسهمت مجلتا «الرسالة» و «الثقافة» القديمتان فى التأهيل الثقافى لأجيال بعد أجيال ، وكانت تصدران بجهود فردية ، فلما جددتا باسم «الرسالة الجديدة» ، «والثقافة الجديدة» - بدعم كامل من الدولة - لم تحققا أثرا يذكر .

وبعض المثقفين ممن يطمحون فى الشهرة الصحفية ، يتقربون من أصحاب الأعمدة فى الصحف، ويرجونهم ، ويحسبون حسابهم ، وهم يضعون أنفسهم بذلك فى مواقف لا يحسدون عليها. وهم يضمرون شعورا بأن صاحب العمود- مهما كان من تواضع شأنه الثقافى - يمكنه من أن يبقى اسم هذا المثقف أو ذاك فى دائرة الضوء ، أو يدفع به إلى دائرة النسيان. وبعض المثقفين النابهين - والله يغفر لى ! - من الأكاديميين لا يرون عروشهم على

كرسى الاستاذية ، وإنما يرونها فى مساحة لا تتجاوز شبرا فى صحيفة . ويعلم الجميع أن رضا - أو غضب - رئيس التحرير هو الذى يضمن بقاء هذه المساحة ، أو عدم بقائها. وقد شهدنا من ذلك حالات تجاوز فيها بعض الكتاب الخطوط الحمراء التى يقدرها من خصص لهم المساحة ، فسلبت منهم ، ولم تعد إليهم إلا بعد أن عادوا هم يكتبون داخل «الخطوط الخضراء» . لقد أصبح ما يقال ومالا يقال - إذن - بيد الصحفى لا المثقف ، وبذلك أصبح معروفا من هو التابع ومن هو المتبوع .

كتب أستاذ مرة - من الجيل التالى مباشرة لجيل الرواد - يشتكى ، فى صحيفة سيارة ، من أن العلماء يقفون فى طابور طويل ، فى انتظار أن يحتفى بهم التليفزيون ، فلا يأبه بهم ، ويخصص سهرة كاملة بمناسبة رحيل «مؤلف أغان» . وقد غاظنى الكلام ، لأننى بحكم وضعى المشابه لوضع العالم الكبير- أنتمى - مع نبذ التواضع الكاذب - إلى صفوف العلماء ، وقلت لنفسى : من الذى وكّله فى الكتابة عنى ، ليشملنى القول بأننى أقف فى «طابور» منتظرا رضا التليفزيون عنى؟ وكتبت لذات الصحيفة محتجا ، فاختار المحرر لكلمتى عنوان «العلماء لا يقفون فى الطابور» وفنّدت

كلام «الأستاذ» تفنيداً. ولم يحدث تعليق مكتوب على كلامى ، ولكن صديقا مشتركا أثق فى صدقه ، نقل إلىّ أنه التقى بالأستاذ فى محفل ، فأشار إلى كلمتى، معبرا عن غضبه منى ، وخيبة أمله فىّ !

نحن نمر بحالة بلبلة ثقافية منقطعة النظير ، وهى حالة مختلطة العناصر ، معقدة التركيب ، ومن الصعب تبسيط الكلام عنها . إنها صورة حياتنا عموما، التى يمكن أن نتحدث عن مظهر واحد من مظاهرها لاخلاف عليه فيما أرى، وهو مظهر «العشوائية». والكلام فى «عشوائية» الثقافة لابد أن يسلم إلى الكلام فى «عشوائية» التعليم ، «وعشوائية» العادات الاجتماعية ، وفى مقدمتها أساليب المعيشة ، من شراب وطعام ولباس، ثم الحياة الشعورية التى يصعب التفرقة فيها بين وهم الخرافة ، وصحة المعتقد .

ويحار الإنسان فى كيفية بدء الأسئلة ، وتوفير الأجوبة ، عن أصل العلة فى حياتنا ، ومرجع الخلل الذي يستشعره الجميع ؛ فهل هذا الخلل خلل إدارى ، يتصل بإدارة دولاب الحياة؟ أو هو خلل فى النقص المعرفى؟ أو هو خلل فى ضبط رد الفعل الشعورى؟ أو هو خلل فى علاقتنا ببيئتنا المادية والمعنوية؟ أو هو خلل فى كل هذه الجوانب جميعا؟ وهل النقص الذى نعانيه مردّه غياب الخطة؟ أو

غياب العمل الجماعى؟ أو غياب الديمقراطية؟ وهل غياب الديمقراطية مثلا يتجلى بأبشع صوره في تسلط الأب فى الأسرة؟ أو رئيس العمل فى المصلحة؟ أو رئيس القسم العلمى فى المؤسسات الأكاديمية؟ أو عميد الكلية؟ أو رئيس الجامعة؟ أو كل هؤلاء جميعا؟ وقد يقول «المتفائلون» أو مصطنعو التفاؤل ، إنه لا يوجد خلل البتة ، وأن حياتنا تسير فى شتى النواحى – وفى مقدمتها الحياة الثقافية بالطبع– على نحو لم ينعم به الوطن من قبل. وإذا كان هذا صحيحا فلماذا هذا الإحساس العام، الذى يشمل الجميع فيما عدا «المستوظفين» ، بأن حياتنا تسير على غير ما يرام ؛ فى طريق التطور أحيانا ، ولكن أبطأ مما يجب ، وفى عكس طريق التطور أحيانا أخرى ؟

وكلمة «الثقافة» ذاتها كلمة خادعة ، وقد نجح أعداؤها فى حصرها فى ركن ضيق فى المجتمع، وضيقوا عليها الخناق، ففقدت تأثيرها، إلي الحد الذى أصبح فيه معنى «المثقف» هو معنى «الفاشل» فى الحياة! وأنت تسمع كثيرا عن «تهميش الثقافة» ، «وأزمة المثقفين» ، ولكن لا يتطوع أحد لك بشرح هذا المصطلح. وقد بلغ الأمر حد السخرية والعبث، حين أجابنى صديق على

سؤالى له : ما المثقف؟ قائلا : المثقف هو من يجلس على واحدة من المقاهى المعروفة للجميع فى وسط القاهرة – وهى ثلاث – ويكون جاهزا لمقابلة شباب الصحفيين، الهائمين على وجوههم لملء أعمدتهم وصفحاتهم، والرد على أسئلتهم اللحظية فى الموضوعات الأدبية المثارة – والتى غالبا ما تكون مفتعلة ، وتبلغ ذروتها حين يصادر كتاب ، أو تصدر رواية من روايات الجنس أو النميمة. فتحت إجابته شهيتى لسؤال آخر كان يتلجلج فى صدرى منذ زمن بعيد ، فسألته : وما الكاتب؟ فخيب أملى هذه المرة، ورد باقتضاب : علم ذلك عند «اتحاد الكتاب» !

ولا أنسى حديث «الجوائز الأدبية والثقافية». وهو حديث طويل، ولكننى سأختصره. وأحب قبل الدخول فيه أن أقول إننى لم أحصل على جائزة أدبية أو ثقافية قط فى حياتى. ومع ذلك لا أخشى بهذا الحديث الصريح عن الجوائز أن يتهمنى قارئى بأننى موتور. وأنا أطمئنه إلى أننى قد أكون مندهشا ، أو غاضبا ، ولكننى لست موتورا ، وأرجو أن يخرج من حديثى بما يجعله يعتقد فى صحة كلامى. ولماذا لا أكون مندهشا ، أو غاضبا ، وقد :

نالها قبلى أناس لم أكن   دونهم علما ولا أدنى جدارة

بتعبير حفنى ناصف ؟ وأقول الحق: لقد كنت عزوفا عنها مجموع سنوات عمرى. وأتذكر أننى هززت كتفى فى غير مبالاة ، ولم أستجب لطلب صديقى فوزى العنتيل ، حين طلب إلى أن أتقدم بأول كتاب صدر لى ، وهو كتاب «فى نقد الشعر» ، إلى جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى .

لقد أوصتنى أمى – منذ وعت ذاكرتى حفظ الوصية–ألا أطلب شيئا من أحد ، وقد تغلغلت هذه الوصية عميقا فى نفسى – وأنا لا أمدحها هنا ولا أذمها – وطبقتها فى الأغلب الأعم – لا فى الجميع طبعا – من أمور حياتى. وأتذكر أننى طرقت باب يحيى حقى، رئيس تحرير مجلة «المجلة» ، لأقدم له أول مقال نشر لى فى حياتى وهو مقال : «قضية المعجم الشعرى فى النقد الحديث» ، وأتذكر كيف استقبلنى بابتسامة واسعة، وطلب إلىّ قراءة فقرة من المقال فى أذنه ، فلما فعلت ، مدّ يده إلىّ ، بابتسامة أوسع ، لأخذ المقال، ونشره فى العدد التالى للقائنا مباشرة، كما كانت لى تجربة أخرى مشابهة مع صلاح عبد الصبور حين كان يتولى تحرير مجلة «الكاتب» ، وحملت له مقالى : «كيف أقرأ العمل الأدبى»؟ ثم وجدت نفسى بعد ذلك أرسل أبحاثى ومقالاتى بالبريد فتنشر دون إبطاء .

وفى مرحلة أخرى أصبحت تطلب منى هذه الأبحاث ، وتجد طريقها دائما إلى النشر . أردت أن أقول إننى لم أمرّ بأزمة نشر فى حياتى؛ فكان ذلك عندى علامة على أننى حصلت على بعض «الاعتراف» «والمصداقية» فى الحياة الأدبية ، وبدون إلحاح من جانبى ، فى مرحلة مبكرة جدا من مراحل حياتى .

ثم أصبحت عضوا فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للآداب والفنون ، وأنا بعد أستاذ مساعد فى «دار العلوم» ، فقفزت بذلك فجأة من صفوف من يتقدمون للجوائز إلى صفوف من يفحصونها أو يمنحونها . وقد سمعت «بنت الشاطئ» تقول - فى واحد من اجتماعات لجنة فحص جائزة الدولة التقديرية - وقد سئلتْ : لماذا لا تتقدمين أنت إلى هذه الجائزة ، أو تبحثين عن جهة ترشحك؟ - «أنا أَمْنَح الجوائز ولا أُمنَحُها» ، فارتاحت نفسى إلى قولها ، ولم أشعر - آنذاك - قط بالحاجة إلى الجوائز ، أو الرغبة فى طرق أبوابها .

ثم حدث أن انفجرت الجوائز - على مستوى العالم العربى - وتعددت أسماؤها ، وصاحب ذلك رصد أموال طائلة ، ودعايات هائلة ، فتحلّب ريق الكثيرين ، ونشطوا فى التسابق عليها . وحدث

أن أبلغت مرة بترشيح دار العلوم أسمى لجائزة العويس الأدبية كما أبلغت فى سنة تالية بترشيح الجامعة الأمريكية اسمى لجائزة «فيصل» الأدبية ، فاستجبت لهذا الترشيح ، بتقديم إنتاجى ، وإعطاء موافقتى ، وكان دافعى للاستجابة – ولا أكتم القارئ شيئا مما فى نفسى – مزيجا من الخجل مِنْ مَنْ رشحنى ، ورغبة فى الحصول على الجائزة. والذى حدث أننى لم أفز بهذه ولا تلك. لكن ما تكشف لى بعد ذلك من واقع خبرتى الذاتية فى العمل فى موضوع الجوائز ، ثم من اتجاه الريح الثقافية عموما ، أقنعنى بأننى ما كان يصح أن أترخص فى وصية أمى، وأعطى موافقتى هنا أو هناك !

وعقلى مطمئن مائة فى المائة إلى أن ما أكتبه الآن فى أمر «الجوائز» صحيح ، وأنا أعتمد فى ذلك على تجربتى العملية ، مشتركا فى عدد منها ، فحصا ، ومداولة ، وتقريرا ، وذلك حين أقول إنها تفتقر فى مجملها إلى المقاييس الموضوعية ، وإنها– بالقطع– لا تصل فى أغلب الأحيان إلى أفضل الذين يرشحون لها، فضلا عن أن تصل إلى ماوراء ذلك من مستحقيها. وهذا هو الحد الأدنى من الكلام الذى يطمئن إليه عقلى وقلبى ، وأتحمل مسئوليته أمام قارئى. فإذا وسّعت مجال الكلام قليلا ، أستطيع أن أقول إن ثمة حالات كثيرة تهدر فيها المقاييس الموضوعية جملة ، ويقضى

فيها باعتبارات شخصية بحتة . وهذه الاعتبارات الشخصية أنواع، وبعضها يصل إلى حد لا يجدى الكلام عنه ! وقد أشرت من قبل إلى دعوتنا على عجل - فى الصيف الأحمر - لنعيد النظر فى توصيات كنا قد وقفنا فيها فى اجتماع سابق عند أسماء بعينها ، وكان واضحا أنه يراد منا توسيع دائرة التوصية لتغطى اسما بعينه ، وقد كان هذا الاسم فعلا هو الذى ظفر بالجائزة حين أعلنت الأسماء ! وهمس لى جار، فى اجتماع لجنة أخرى ، بأن شخصا بعينه جدير بالتصويت لصالحه ، لأنه محتاج إلى مبلغ الجائزة لتغطية نفقات علاجه ، وفعلا كانت الجائزة من نصيب هذا الشخص ذلك العام. وأرجو أن أضيف هامشا هنا إلى الكلام ، وذلك حتى لا أتهم بالقسوة على المرضى ، وهو أننى أرى الفصل بين «الاعتبارات» ، وأطالب بتسمية الأمور بأسمائها ، ومنح تكاليف العلاج للمريض ، ومنح الجائزة الثقافية للمثقف ، وإرساء قواعد التنافس على أساس «الشفافية» التى لا تقول شيئا فى العلن ، وتضع اعتبارا آخر فى السر ، وأحيل قارئى على ما كتبته فى الفصل الأول «فى الوكالة» عن حديث اللجان الحقيقية ، واللجان الوهمية ، التى تشكل لتقدير درجات الطلاب .

ولا فرق- فيما جرّبت ومارست - بين أسلوب العمل فى معظم الجوائز ، وبين ما كان يجرى عليه العمل فى انتخابات الأرياف التى كنت أشهدها على عهد الصبا ؛ الزيارات الليلية هى الزيارات الليلية ، والعهود والمواثيق هى العهود والمواثيق، والترغيب إذا كان صاحب الصوت قويا ، والترهيب إذا كان ضعيفا والولائم إذا لزم الأمر . هنا يكون «التحوصل» ، «والتربيط» هما أساس العمل، أما الاختيار الحر فيترك للأمور التافهة التى لا مأرب فيها لأحد . وقد يدخل «سيف الحياء» ، «والإحراج» ، «والنفاق الاجتماعى» عوامل فى المجال ، وأحيانا يصل الحد إلى «التشدق» بأخلاقنا الريفية ، وأصالتنا المصرية - بل وقيمنا الدينية - التى تمنع الفرقة ، وتمجد الإيثار ، فى سبيل الضغط لإيصال الأمر إلى غير مستحقه .

ذلك بعض من جو العمل الثقافى ، الذى شهدت طرفا منه بنفسى على مدى ما يقرب من أربعين عاما . وأنا أقطع بأن المشهد كان ينتقل فى البداية من المقبول ، إلى السيئ، إلى الأسوأ ، ولكن الأمر فى الأزمنة الأخيرة قد ضرب فى التدهور أمثلة قياسية. وقد اتخذت حياله - مما يشهد به من شاركونى العمل - مواقف بعضها

مباشر ومعلن ، وبعضها مباشر وصامت ، وبعضها غير مباشر ، وهو الانصراف إلى عملى فى عزوف مقصود عن التغريد داخل السرب. ومن الطبيعى أن يضعنى ذلك خارج «طابور» الاختيار للجوائز ، والمؤتمرات ، وما أشبه، وذلك يحزننى لأننى لم أنل - من الناحية الاعتبارية - ما ناله أقرانى من أبناء الوطن. لكننى - فى الجو الذى وصفته - تحررت، نتيجة لذلك ، من أن أحمل جميلا لأحد ، وساعدنى على الإحساس بهذا التحرر أن أحوالى المالية والصحية لا تلجئنى إلى طلب العون. ولن ألبس مسوح البطولة فادعى أننى أفضّل الموت على العلاج الذى يعرض علىّ تحت اسم «جائزة» ، لكننى بالقطع لا أرى مالاً - أو أى نفع - يساوى ما قرأناه منشورا فى الصحف من أن أحد المرشحين لجائزة الدولة التقديرية مرّ بليل على بيوت أصحاب الأصوات ، وتوسل لبعضهم أن يمنحه صوته ، عارضا أن يقبل قدمه نظير ذلك ، والغريب فى الأمر أن مسعى هذا الشخص قد كلل بالنجاح !

ويدهشك فى أمر الثقافة والمثقفين ماهو حاصل بينهم من «العصبية المعهدية» ، فكل أبناء مؤسسة أكاديمية يتحوصلون فى «شلة» غير قابلة للاختراق ، ويوزعون «الفرص» على بنى جلدتهم،

ونظرة إلى مجموع الوظائف القيادية فى مجال الثقافة تعطيك دليلا على ما أقول. والنعرة المعهدية موصولة فى حياتنا الثقافية بنعرة إقليمية تطل برأسها على نحو فج هنا وهناك، وهى تتبع فى ذلك التقلبات السياسية دون حياء ؛ فكم من مثقف يتشدق بأن ثقافته «عالمية» ثم تراه لا يبصر أبعد من موطئ قدميه ، وذلك حين يسهم فى تعميق «الإقليمية» غير مدرك للتناقض الحاصل فى حالته بين كونه مبدعا «بالعربية» ، وداعيا إلى « المصرية» ، ولكون الصفة التى يحاول أن يدير لها ظهره هى ذات الصفة التى جعلت منه مبدعا يتكلم فيستمع إليه .

دعينا على «السحور» عند صديق من أصحاب الصالونات الأدبية ذات رمضان ؛ فانتظم هناك جمع من الأدباء . ولما تشعب الحديث قال قائل : إن حال نقاد الأدب فى مصر عجيب ؛ فهم لا يحتفلون بأعمالنا مهما كانت دررًا ، فى حين أنه لو كتب في أى بلد عربى آخر أى شئ فإن نقاد بلده يهللون له ويكبرون . نظرت حولى فوجدت أننى وصاحب الدار الوحيدان من بين الحاضرين الذين يمكن أن تنطبق عليهم كلمة «نقاد» ، فأصبح واجبا علىّ أن أعلق على كلامه ، لأعفى صاحب الدار من الحرج ، فيما إذا كان له رأى

مخالف. قلت له : يا أستاذ ، أنت تكتب باللغة «العربية» لا باللهجة «المصرية» ، فإبداعك إذن عربى، وليس مصريا. وكونك تكتب فى موضوعات مصرية إقليمية لا يغير من هذا الوضع شيئا ، وألا لعددنا «هاملت» – الدنماركى– أدبا دنماركيا ، «وتاجر البندقية» أدبا إيطاليا ، «وعطيل» أدبا افريقيا ، لكنك تعلم أن كل هذه الأعمال الشيكسبيرية من قلب الأدب الإنجليزى . وزدت فقلت له : إن من طبيعة الأدب «الانتشار» لا «التحوصل» – شكرا لعمومية اللغة لا لخصوصية الموضوع – ولذلك هو ضد «التأقلم» ، «والتشرذم» ، وهذا هو السبب الذى نطمع من أجله فى أن يرتق الأدب ما تفتقه السياسة . وهب أن غيرنا ينفخ فى النعرة « الإقليمية» فإن ذلك لا ينهض سببا لأن نفعل فعله ، بل الواجب أن نفعل عكس ذلك ، وهو محاصرة «الإقليمية» ، والتضييق عليها. وقلت له : إننى لا يعنينى أكان النص الذى أتناوله مكتوبا بقلم مصرى ، أو عراقى ، أو سورى ، أو خليجى – ولا أريد أن استطرد إلى عدّ كل الدول العربية – وإنما يعنينى مستواه بصفته أدبا عربيا يعبر عن تقاليده النوعية التى طورت على مر الزمان ، وهذا هو ما يحركنى بصفتى ناقدا أدبيا. ولم يعلق هو على قولى ، ولكنه لم يتقبله بقبول حسن ، بدليل أنه لم يهتم حتى بمصافحتى حين كنا نترك بيت مضيفنا منصرفين!

ويحضرنى مثال إضافى على تلك «النعرة الإقليمية» ، آخذه مما يمكن أن اسميه – ترويحا عن نفسى وعن قارئى– «الحالة الأدونيسية ؛ نسبة إلى الشاعر أدونيس» . و«أدونيس» – فى التقييم النقدى العام – شاعر من شعراء الطليعة ، وموقعه من شعراء العصر فى الطبقة الأولى. وهو واحد ممن أصدروا مجلة «شعر» فى الستينيات من القرن الماضى فى «بيروت» وكانت ترفع شعار الحداثة ، وتبشر بقصيدة النثر ، وتثار من حولها شبهات كثيرة متصلة بجهات التمويل ، والتوجه «الأيديولوجى» . ولابد أن عمر «أدونيس» الآن قد تجاوز السبعين .

وأدونيس شاعر مثقف ، نَخَل التراث الشعرى العربى ، وقدم منه مختارات – كما فعل أبو تمام والبارودى – كما قدم أفكاره التقدمية فى «الثابت والمتحول» . ويلف شعره الغموض ، لاشتماله على رمزية بعيدة الغور ، وحس صوفى لا يخطئه قارئه ، كما أن فيه – بالطبع – ثورة على الواقع ، وتجاوزا له . لم أصبر على قراءة شعره طويلا ، وإن عدت إليه بين الحين والحين ، وعلى ذلك لا أستطيع القول إننى من عشاق هذا الشعر . لم أكن قد رأيته حتى دعاه قسم الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية ليحل «ضيفا

متميزا» عليه ، أيام كنت رئيسا له. وعلى ذلك أصبح لزاما علىّ أن استقبله ، وأضيّفه ، مدة بقائه فى القاهرة .

غداة وصوله ، جلسنا معه جلسة صباحية مشمسة فى «كازينو قصر النيل» – صحبة السعيد بدوى وحمدى السكوت – ثم تغدينا فى «خريستو» عند سفح الهرم. بدا شابا فى ريعان الشباب، قليل الجسم ، خفيف الحركة ، يبتسم بوجهه جميعا، ويتمتع ببساطة بادية ، وروح مرحة ، وسخرية خفيفة . لديه حسن استماع إذا صمت ، وفصاحة بيان إذا تحدث . متشبّع بالتراث العربى ، ومنطقه محكم ، ومهما فتشت ، ونقبت ، فلن تعثر فيه على ذرة افتعال.

كنت قد سمعت – قبل أن ألقاه –عن جلسته المشهورة فى معرض الكتاب ، وكيف أنه حوصر بالتهم – ومنها سبّ مصر – حتى بكى بالدموع . وقد تخيلته – آنذاك – محاربا شرسا ، لكن تكوينه الذى وقعت عيناى عليه – من قبل أن أتحدث إليه – لم يكن يسمح بشئ من هذا . أما حين استمعت إلى مجمل وجهة نظره فى الثقافة ، وفى الناس ، وفى الدنيا ، فقد بدا لى البون شاسعا بين ما تخيلته ، وما أراه عيانا .

قدم «أدونيس» فى «القاعة الشرقية» محاضرة ناجحة ، شرح فيها وجهة نظره فى معني الثقافة . كانت لغته كاشفة ، وبرهنته ناصعة ، وحواره واضحًا مهذبًا . ولم أدر- وقد جلست أستمع إليه - من أين جاءت فكرة «عنصريته» ، أو «عداوته للغير» ، وحين سئل عن «سبه مصر» ، تحدى سائله أن يدله على موضع ذلك ، فيما قال أو كتب ، فلم يقدم له سائله شيئا . ثم قرأ بعض أشعاره التى لم أستطع التجاوب الكامل معها ، حتى أتى إلى قصيدة قصيرة عذبة جدا عنوانها «أول الكلام» :

ذلك الطفل - الذى كنت - أتانى

مّرةً ، وجها غريبا

لم يقل شيئا ، مشينا

وكلانا يرمق الآخر فى صمت . خطانا

نَهَرٌ يجرى غريبا

جمعتنا ، باسم هذا الورق الضارب فى الريح الأصول

وافترقنا

غابةً تكتبها الأرض وترويها الفصولُ

أيها الطفل – الذى كنتُ – تقدمْ

ما الذى يجمعنا الآنَ وماذا سنقولْ ؟

سقطت القصيدة دفعة واحدة إلى أعماق قلبى ، فتوحّدتُ معها ، وأصبحنا دائرة مكتملة . ما هذا «اللف والنشر» الغريبان؟ ما هذا النّسج المحكم المضفور من خيوط المجاز غير التقليدى ؟ ماهذا التكثيف المتزيّى يزى «السطحية» والعفوية؟ ما هذا المزج المتوازن بين الذاكرة والواقع والخيال؟ ما هذه الموسيقى المترقرقة التى تتراوح بين المرونة الكاملة والضبط الدقيق؟ ثم : ماهذا التضافر البديع بين الداخلى والخارجى في موسيقى الكلام؟ طلبت من «أدونيس» أن يوفّر لى نسخة منها ، فأستمهلنى يومين ، ثم عاد بها إلىّ مكتوبة بخطة الانسيابىّ على ورقة بردى ناصعة . والآن أستطيع أن اقرأها كلما أردت ؛ فهى معلقة فى إطار بسيط على جدار مكتبى .

لم يكن جمهور «ادونيس» فى القاعة الشرقية كبيرا ، لكنه حين أنشد أشعاره فى «المسرح الصغير» – بدعوة من دار «الأوبرا» ، احتشد له خلق كثير. وبدأت التعليقات تتوالى على زيارته وكتبت أنا إلى «فاروق شوشة» رسالة عنه نشرها فى مقاله فى

«الأهرام» ، ولم يفوّت «الإقليميون» الفرصة ، فعادوا إلى نبرتهم القديمة التي نالنى منها بعض «الرشاش» . كان يُرمى «أدونيس» بالحداثة» ، وعداوة الشعر العربي ، والعرب ، والثقافة العربية ، من قبل «الإقليميين» ، لكنه كان يُرْمى من بعض شباب الباحثين داخل الجامعة الأمريكية ، بالتخلى عن الحداثة ، ومغازلة التراث . وأقطع، من جانبى ، بأن رصيد «أدونيس» المعرفى ، وخبرته بالعربية ، وتراث العرب ، يتضاءل إلى جانبه حصيلة كل من سمعته يتصدى له فى هذه الأبواب ، ومنهم شبه أميين ، اختبرناهم فوجدناهم لا يقيمون لسانا ، ولا يدركون فرقا بين الشعر والنثر .

لقد أشرت أكثر من مرة إلى أن الثقافة الحقة تنحسر عن واقعنا ، ليحل محلها نوع من «التدليس الثقافى»، «والطبل والزمر» ، الذى يحل فيه الكلام عن الثقافة محل العمل علي إحياء الثقافة ذاتها. ومنذ حين لقيت شاعرا شابا مصريًا ، أكنّ له المودة ، فى حفل من حفلات الجامعة الأمريكية، فبادرنى بتقديم التهنئة لى لنجاحى فى النجاة من «المستنقع» الثقافى ! قلت له : إننى أعيشه فى خيالى «نبعا رائقا» ! قال لى : وخير طريقة للاحتفاظ به على هذا النحو أن تبقى على موقفك بعيدا عنه ، وتركنى وفى حلقى ركام من المرارة!

الخاتمة

الكلام الذى أبدأ به هذه الخاتمة من عندى ، ولكنه متأثر - ولاشك - بملاحظة درية فهمى التى أبدتها على كتابى «فى الخمسين ..» وذكرتها فى مقدمة هذا الكتاب . لماذا أحرص على كتابة سيرتى الذاتية - وأجعلها في جزءين لا جزء واحد - مادمت لم أدخل سجنا ، ولم تكن لى مغامرات سياسية ، أو ثورية ، وما دمت لست «دنجوان» العصر ، ومادمت لم أجرب «الشك الديكارتى» أو حتى «الشك الغزالى»؟ وكيف أقدم للقارئ سيرة خالية من «الإثارة» - ومظهرها الكلام فى المحرمات الثلاث - الجنس والدين والسياسة - ثم أبكى لأن القارئ لم يحفل بها؟ وكيف أعيد الكَرّة مع أن سيرتى - فى جولتها الأولى - لم تظفر سوى باهتمام مائة قارئ فقط فى الوطن الواسع؟ ولماذا أدخل الناس إلى بيتى مادمت لست مستعدا لأن أريهم «دورة المياه» ، على حد ملاحظة محمد مستجاب ؟

ولا أنكر أن ملاحظة مستجاب مصرية صميمة ؛ فالناس يتوقعون شيئا من «الإثارة» ، وحياتهم الراكدة تحتاج إلى ما يبعد عنها شبح الملل . بطريقة المرور على الصفحات ، بحثا عن «زواج البطل بالبطلة» ، أو «طلاق البطل من البطلة» ، وتأكدا مما إذا كانت

الإشاعات المتداولة عن علاقة فلان بفلانة صحيحة أو غير صحيحة، ،وبحثا عن أخبار العصابة الفاسدة المؤلفة من علية القوم ، ودهشة من أن هذا العَلَم» المشار إليه بالبنان فى عالم الفن أو السياسة إن هو إلا «لوطى» أو «قواد»؟ أما الذى يحدثهم عما يعرفونه ، مما يتكرر أمامهم كل يوم ، من التعليم ، أو أشواق النفس ، أو الكفاح من أجل الترقى، أو نقد الحياة الروحية أو الاجتماعية ، أو كتابة الكتب ، أو الأسفار ، أو حال الثقافة ، وكل مفردات «الحياة السوية» ،فهم عادة ينصرفون عنه غير مبالين . تلك هى الكتلة البشرية العظيمة ، التى تحملق فى شاشات الفضائيات ، باحثة عن «المُخَبَّأ» فى المسلسلات التليفزيونية؛ لا يسأل أحد منها نفسه عن «منطقية الحدث» ، أو «نمو البناء الفنى» ، أو ترقرق الطبيعة الحية أو الصامتة ، أو حنين الروح الإنسانية إلى الأمن ، أو عبقرية اللغة.

أظن أن الناس - ببساطة - لا يريدون «أدب السيرة الذاتية» وإنما يريدون «أدب الاعتراف» ، وبخاصة فيما شذ عن قاعدة المتعارف عليه فى نواحى الحياة - أو هكذا فهمت من ملاحظة مستجاب ، ومن النسخ المائة البائسة التى وزعها «فى الخمسين» ؛ فهل أمثل أنا حالة غريبة ليست لديها «اعترافات» ، ومع ذلك تريد

أن تستمر فى تقديم بقية سيرتها الذاتية ! وأليست تريد هذه الحالة أن تصل إلى الناس عن طريق التوزيع؟ وماذا لو ظفر هذا الجزء الثانى أيضا بمائة قارئ فقط؛ وجوابى واضح لدى ، وهو جواب بسيط : نعم ، ليست لدى اعترافات ، فهل كُتب علىّ أن أكتم ما أريد قوله- مما أجده فى نفسى- حتى أموت؟ ولماذا يعطى أحمد أمين الحق فى أن يكتب «حياتى» وطه حسين الحق فى أن يكتب «الأيام» ، والعقاد الحق فى أن يكتب «أنا» ، وسلامة موسى الحق فى أن يكتب «تربية سلامة موسى» ، وأحرم أنا هذا الحق، وأنا مواطن مصرى؟ بل لماذا يعطى محمد مستجاب الحق فى أن يقدم «نعمان عبد الحافظ» ، وسيرة آل مستجاب من «كلب آل مستجاب»، وحتى الجيل الرابع من آل مستجاب ، وأحرم أنا من هذا الحق؟ لماذا يكون من نواقصى فى نظر قارئى أننى لم أدخل السجن- مع النشالين والقوادين والقتلة - أو لم أحدثه عن مغامرات نسائية صحيحة أو مفتعلة؟ الجواب عندى - وبكل تجرد وتعاطف مع الناس- يكمن فى خبايا نفوس الناس المملوءة بالحرمان بكل أنواعه؛ الحرمان من الرفاهية الاجتماعية ، والحرية الفكرية والسياسية ، والحرمان من معرفتهم بصحيح الدين والمعتقد .

والخلاصة أن من يتصدى للكتابة عليه أن يقبل طائعا دفع الضريبة المترتبة على هذه الكتابة، وإلا وجب عليه الصمت. وقد اخترت الكتابة حين كتبت «فى الخمسين» ، ومع ذلك لم أتحمل ضريبة باهظة لا ماديًا ولا معنويًا؛ وعلى العكس من ذلك ؛ فقد استقبل الكتاب - كما قلت - من الكاتبين استقبالا حسنا. وعليه، فقد بقى علىّ فقط شرح الأهداف التى من أجلها «أتجشم» الكتابة ، أو بعبارة أصح «أتمتع» من أجلها بالكتابة.

وأول أهدافى أن أحقق سعادتى حين أمارس حريتى بوضع «الكلمات» على «الأوراق» ؛ فأنا أجد فى هذا الفعل راحتى، منذ أن تحكمت فى «القلم والقرطاس» . وقد كتبت فى حياتى شعرا، ورسائل شخصية ، وأبحاثا أكاديمية ، وتقارير إدارية ، وحين لا أجد شيئا «مفيدا» أكتبه أشغل نفسى عادة «بالشخبطة» على الأوراق. هنا أشعر كأن حملا ثقيلا يلقى عن كاهلى، ولا يعنينى بعد ذلك أكان ما كتبته ذا معنى يتعارف عليه الناس، أو كان خاليا من المعنى جملة فى نظرهم. ويسرّنى - بالطبع- أن يجد كلامى طريقه إلى الآخرين ، أما أنه يعود علىّ بعد ذلك بالنفع المادى، أو يجلب إلى إطراء أو شهرة ، أو يجلب علىّ- فى الجانب الآخر - رفضا أو حتى متاعب ، فهذا لا يشغل بالى على الإطلاق.

حين أكتب أحس بالحرية، وحين يكون موضوع الكتابة سيرة حياتى أحس بحرية مطلقة ؛ لذا فإننى - فى الحالة الأخيرة - أختار ما أريد، واطّرح ما أريد ، وأختار لذلك من العبارة ما أريد ، مستجيبا لدواعى نفسى فى جميع الأحوال ، وأعبّر عن قدراتى فى فحص ما بداخلى دون مواربة أو تكلف. والنتيجة أنه إذا جاء كلامى - عند القارئ - متحفظا فمعنى هذا أننى متحفظ، وإذا جاء متحررا فمعنى هذا أننى متحرر، وإذاجاء مبالغا فيه فمعنى ذلك أننى مبالغ، وإذا جاء معبّرا عن رغبة فى الحياة فمعنى ذلك أننى راغب فى الحياة ، وإذا جاء معبرا عن عزوف عن الحياة فأنا عازف عن الحياة. ويقابل ذلك ، أننى أعطى قارئى الحرية فى أن يقبل كلامى أو يرفضه ، يقبل عليه أو ينصرف عنه ، يرضى عنه أو يغضب عليه ؛ إذ كيف يمكن أن أتمسك بحرية القول إلى هذا الحد بالنسبة لنفسى، وأمنع حرية التقبل - أو عدم التقبل- عن قارئى؟! أما أن يقول لى القارئ هذا ينبغى أن يقال ، وهذا لا ينبغى أن يقال فمعناه أنه يطبق علىّ مقياسه هو فيما ينبغى ومالا ينبغى ، ومعناه أنه يحدد لى «سقف» ما يقال ، ويجعل مردّ الحقيقة إليه هو - وهذا ظلم ما بعده ظلم !

والهدف الثاني ، الذى أكتب من أجله، ألخصه فى التالى :

نشأت فى بيئة محرومة من نعمة المعرفة ، وكنت واحدا من أعداد قليلة جداً، من أفراد تلك البيئة، أتيح له، لا «فك الخط» فحسب، بل والوصول فى مدارج المعرفة إلى درجة «رفيعة» نسبيا ، وأنا لا أقول هذا تفاخرا ، وإنما لتقرير أمر واقع ، لذا أحسست دائما أن علىّ واجبا أدبيا ، هو تقديم حياتى «التعليمية» مكتوبة على الورق ، علّها تكوّن شعاعا ، يضئ به قلب شاب متطلع إلى المعرفة كما كانت عليه حالى أيام صباى وشبابى ، فيعمد بذلك إلى تغيير حالة الجفاف المادى والعاطفى والفكرى، التى تسود البيئة، عن طريق المعرفة لا عن طريق غيرها. وقد عاش معى هذا الحلم طول حياتى المهنية ، فحاولت أن أكون «حالة نموذجية» - أقول حاولت!- من الانضباط المعرفى والمهنى، لا من أجل الوصول إلى مستوى أفضل فى العيش ، بل من أجل الوصول إلى مستوى أفضل فى الناحيتين الأدبية والفكرية .

ولابد أن أعترف بأن الاستجابة التي لقيتها من الآخرين فى هذا الصدد لم تكن مُرْضية لى ، ولم تحقق الحد الأدنى من أشواقى المتعلقة بهذا الحلم ، وذلك لأن التغيرات الاجتماعية ، المتجهة

بطريقة محمومة إلى تغليب الماديات على الروحيات والمعنويات ، هزمتنى ، وبخاصة فى العقدين الأخيرين من القرن الماضى. لقد انصرفت الأغلبية التى اختلطت بها، أو درّست لها، فى اتجاه آخر، ومع أن هذا خيّب أملى، فإنه لم يصرفنى عن معتقدى ، أو التعلق بأهدافى. وأعلم أن خيبة أملى واضحة فيما سطرته من صفحات فى هذا الجزء الثانى من سيرتى الذاتية ، كما أعلم أن «المتفائلين بطبعهم» ما أسهل ما يصفون طريقى بأنه طريق المهزومين العجزة لكننى – وياللعجب!– أراه على عكسهم الطريق الملائم الذى يمكن باتباعه تحسين مجرى الحياة! وأود أن أقول إننى – مع كل ما تطفح به نفسى من مرارة – لست متشائما، ولا أعانى من أية حالة من حالات «الانقباض» . وقد قال لى صديق من أصدقائى مرة إن اعتزالى الحياة العامة – حلقة حلقة– فى السنوات الأخيرة – كما هى الحال – يمكن أن يدفع بى بالتدريج إلى «الاكتئاب» ، فأجبته بأننى – على العكس منه – أرى أن الاندماج فى هذه الحياة– التى أتفق أنا وهو على أنها حياة التدنى المعرفى، والتحوصل، والتكالب على الفتات – هى التى يمكن أن تدفع إلى الاكتئاب ، وما جدوى الانغماس فى حياة لا نؤمن بجدواها ، ولا نستطيع – فى الوقت

ذاته- تغييرها؟- وهكذا أعدت إلى صديقى تحذيره، وبادلته نصيحة بنصيحة، ورعاية برعاية! إننى أنصرف إلى عملى المحصور فى القراءة والكتابة ، وأداء الواجبات المهنية الأخرى، وأرعى أسرتى، وألقى أصدقائى. أفعل ذلك راضيا، عالى الروح، موفور الصحة النفسية. أما الهموم الثقال التي أعانيها بسبب كل ما تحدثت عنه، فهي هموم الكائن الحى، المنتمى، المكترث الذى يطلب للحياة التى يعيش فيها مستوى أفضل ، كمًا وكيفا ، ونوعا ، ودرجة !

وأرى أن نبرة الغضب - وأعترف أنها بادية عندى- هى النبرة التى ينبغى أن تسود ، وذلك تحذيرا من الوقوع فى مزيد من التردى، وهى شئ آخر غير اليأس ، الذى لا ينبغى أن يكون له محل في حياتنا . والذين يخلطون بين الغضب واليأس يخطئون أشد الخطأ وأكاد أذهب إلى طرف النقيض ، وذلك حين أقول إننى أعد النبرة الراضية عما هو كائن هى النبرة اليائسة ، التى تقنع بالواقع مع اعترافها بترديه . وأفظع من النبرة الراضية النبرة «التبريرية» التى تقول إنه «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» ، أو التى تقول إننا لم نمر بحالة من الازدهار كالتى نمر بها الآن، وهي نبرة لاتجدها إلاي على لسان المسئولين فى كل ناحية من نواحى الحياة؛ وحسبك

بهذا علامة علي أنها لا علاقة لها بواقع الحال! ويصيبنى بالدهشة - بل وبالاشمئزاز - ما أسمعه من مقارنات تضعنا فى حالة تفضيلية مع بلاد لا وجه للمقارنة بيننا وبينها على الإطلاق، ولا تقارن بيننا وبين بلاد نحن جديرون باللحاق بها. وغنى عن القول إن الحالة الأولى تجعلنا فى حالة استرخاء ، ورضا عن النفس؛ الأمر الذى يثبطنا عن القيام بمزيد من الجهد، فى حين أن الحالة الثانية - المحفِّزة الغاضبة- من شأنها أن تحيى بعض الأحلام المشروعة، التى كادت تموت فى النفوس .

وأسلحتى الثقافية والشخصية التى أتسلح بها دائما ، وأستعين بها على تحقيق صحوة معرفية عالية ، لا أغفل بسببها لحظة واحدة عن حاضرى الثقافى هى : رفض الخداع، ورفض القهر الثقافى، ورفض ادعاء أصحاب أنصاف المواهب أنهم أجدر من غيرهم. وأقَدّم فى كل ذلك ما عندى - ولم لا؟ فى صراحة لا تجرح سوى «المجرَّحين» ، وفى أسلوب أراه ملائما للمقام، وهو أسلوب حصّلته- كما أقول دائما- بجهدى ، وأوجهه إلى أهداف معنوية ، مبرأة عن أية منافع شخصية حاصلة أو متوقعة ، وأقبل النقاش الحر فى أية نقطة من النقاط التى أعرضها فى كلامى ،

سواء أكان ذلك فى مجال التعليم ، أم النقد الأدبى، أم الثقافة العامة. ويؤلمنى أن أرى أقواما يعدون أنفسهم أجدر من غيرهم بالمسئولية ، وأن الأقدار ساقتهم للتحدث باسم غيرهم ، وهم ليسوا أجدر من غيرهم بهذا الحديث ، كأن البلد ليست بلدنا جميعا ، وكأن «التثقيف» ليس مهمة الأقدر عليه.

وتشغلنى الآن أسئلة متعلقة بما لم أستطع تحقيقه فى ماضى حياتى، فكوّن ذلك نواقص في هذه الحياة أراها رأي العين. وبودى لو استكملت هذه النواقص ، وذلك حتى تتسق حياتى الفعلية مع رؤيتى «الناقدة» للحياة عموما ؛ تلك الرؤية التي تجعلنى دائما أتجه إلي التوق والتطلع إلى ما لم يتحقق ، لا إلى الرضا أو الافتخار بما تحقق .

وأضع في مقدمة نواقصى النقص الواضح فى تكوينى الثقافى ؛ فقد كانت معارفى حتى سن الثلاثين محصورة فيما حصلته باللغة العربية ، وذلك قبل أن ينفتح أمامى باب القراءة باللغة الإنجليزية. قضيت وقتا طويلا جدا فى «حفظ المتون» – من كل جنس ولون – ولم أترك نصا يستحق «التخزين» فى الذاكرة إلا وخزّنته، لا أستثنى فى ذلك المتون الأزهرية فى العلوم المختلفة

التي حصلتها على مدى تسع سنوات بذاكرة حافظة ، وخيال طليق. ثم أضفت إلى ذلك الشعر العربى ، قديمه وحديثه ، مدة الطلب فى دار العلوم ، ثم المعارف المختلفة التى كان يموج بها العصر ، والتى كانت متاحة لى من الصحافة الأدبية ، والصحافة السيارة ، والقراءة الحرة ، والنشاط الذى كانت تعج به قاهرة الخمسينيات، مما أشرت إليه فى الفصل الثالث .

ومنذ أصبحت قادرا على القراءة «الرشيدة» باللغة الإنجليزية – وأحدد لذلك أوائل الستينيات – نمت معارفى ، وتطلعت إلى توسيع معنى «التثقيف» لدىّ ، فشمل الفنون، والتفكير العلمى، والسياسة بمعناها النظرى، والاجتماع ، لكننى لم أحصّل فى ذلك ما كنت أصبو إليه ، وذلك لانشغالى الشديد بالحصول على درجة الدكتوراة، وما تبع ذلك بعد عودتى ، من انشغالى بواجباتى الأكاديمية .

وهمّى الآن – وقد تجاوزت السبعين– أن أمّد عينى خارج نطاق الأدب، بل خارج نطاق «الإنسانيات» جملة ، متطلعا إلى متابعة التطور الواسع الحاصل من ثورة المعلومات، وثورة الاتصالات ، وما تبعهما ونتج عنهما من تقريب المسافات بين

الأشياء المتباعدة. وبعبارة أخرى، أود أن أحقق شيئا يسلكنى تحت مسمى «المثقف الشامل» ؛ فإذا كان متعهدو الحفلات «الفنية» - وهم أميّون كما نعلم - «يثقفوننا» عن طريق المصطلحات التى يطلقونها على راقصات ومغنيات من الدرجات الدنيا، أمثال «الفنانة الشاملة» ، أفيكون كثيرا علىّ أن أتطلع فى الفترة الباقية من عمرى إلى الاقتراب من درجة «المثقف الشامل» ؟!

وكما أعانى من نقص فى التكوين الثقافى ، أعانى من نقص فى التكوين الروحى؛ فقد اختلطت الخرافة بالحقيقة فى وجدانى فى تلك الناحية منذ الصغر ، واختلطت فى خيالى حكايات الجن والعفاريت بأحداث الحياة اليومية ، وازدادت مخاوفي ، فكنت أتوقع أن الشيطان يكمن لى على رأس المنحنى، ويعابثنى دون ذنب جنيته. كذلك اختلط غضب الله علىّ بغضب أمى وأخوتى والذين يعلموننى، فلم أعد أفرق بين ما أناله من عقاب نتيجة تقصيرى ، وما أناله نتيجة غضب الآخرين علىّ ، واعترتنى لذلك أسئلة محيرة فى فترة حرجة من فترات حياتى. ولم أستطع التمييز بين ما هو مادىّ وما هو روحىّ، إلا حين بدأت أقرأ بلغتين ، أو أنظر بعينين ، فاعتصرت بمساعدة الثقافة العلمية ، والنظرة الواقعية للحياة ،

الخرافة من حياتى قطرة قطرة. وحين نجحت فى تقليص دائرة «الذنب الذى لم أجنه» ، ووضعه على الرف فى حياتى ، والصراع فقط مع «الذنب الذى جنيته» ، ساعدنى هذا على وضوح الرؤية فى تشكيل حياتى. وأصبحت أفرق بين الخرافة البحتة، والعادة المستقرة، فى ناحية، وصحة المعتقد فى ناحية أخرى. وأنا مدين فى ذلك لحياتى العصرية ، ولعقليتى التى اتجهت من الاستيعاب والتكديس ، فى النصف الأول من حياتى، إلى الاعتبار والنظر، ثم الفرز والفحص ، فى النصف الثانى منها.

غير أن كل ما تقدم مما قلته شئ، وما أتوق إليه من تكملة ثقافتى الروحية، شئ آخر. وفكرتى التى أدين بها أن حياة الإنسان - إذا لم تتعادل كفتاها المادية والروحية- تكون هى الشقاء بعينه. وقد قرأت كثيرا من تجارب الروحيين ، من متصوفة الماضى، ومتصوفة العصر، ولكننى لم أحصل على بغيتى فيما قرأت، ولازلت أتذبذب بين الزهد فى الدنيا والتعلق بها، وأعدّ ذلك دليلا على أن حياتى الروحية ليست بالثراء الواجب ، وأننى إذا لم أنجح فى أن أنتزع من نفسى كثيرا من نوازع الرغبة ، والرهبة، والخشية ، والرجاء ، والحاجة والغنى ، فإننى سأظل فقير الروح. والنقص

الروحى الذى أعانيه نقص فى «الإطار» ، وهو أقرب إلى أن يكون وجوديا فلسفيا ، ولازلت أتذبذب بين الشك واليقين فى أمور روحية كثيرة .

ومن نواقصى، شعورى بأننى لم أر من العالم الفسيح سوى رقعة لا تذكر ، وأن رواق العالم رواق واسع، وأن حظى من الفرجة عليه حظ ضئيل . عشت فى انجلترا، وزرت فرنسا واسبانيا وأمريكا، ومررت بإيطاليا وهولندا ، وعشت فى الجزائر ، والكويت، وزرت معظم البلاد العربية، وطفت بجميع أرجاء بلدى ، ولكن ماذا تساوى هذه الرقعة الضيقة من رقعة العالم الفسيحة؟ حقا إننى لم أقعد عن الحركة طول حياتى ، لكن انشغالى ببناء نفسى ماديا وأدبيا - بالإضافة إلى ضيق ذات يدى- حال بينى وبين السفر على نحو واسع. وعندى رغبة فى زيارة أجزاء لم أرها من العالم ، وعزوف عند زيارة أماكن أخرى حتى لو أتيحت لى زيارتها وما أرغب فيه محتاج إلى وقت لا أملكه، وإلى أموال، مكتسبة أو موروثة، لا تتوفر لدىّ ، وحلمى ممتد فى هذا الصدد وعريض ، وواقعى قاصر ، وتلك معضلة ؛ وهى تشكل نقصا فى حياتى لاشك فيه .

وأعانى كذلك نقصا فيما يمكن أن يسمى «الحس الاجتماعى»

وأنا- فى نظر الناس على الأقل- انقـبـاضـى INTROVERT لا «انبساطى» EXTROVERT ، وقد وصفنى زميل لى قديما فى دار العلوم بأننى لا أبتسم إلا لأصدقائى؛ فسرنى قوله من حيث أراد هو أن يسـوغـنى. ولاشك أننى لم أفلح فى التـخلص كليـة من حيـائى «الريفى» القديم ، وأعمل على مداراة خجلى كثيرا بالسخرية من نفسى ومن الأشياء ، لكن ذلك لا ينقذنى فى كثير من المواقف. ولا أستريح لما يفعله بعض الناس، من أصحاب «الحس الاجتماعى» ، من مـحـاولة إرضـاء الجـمـيع، أو إثبـات «الحـضـور» عن طريق المجاملات المسرفة ، وتملق مشاعر الآخرين. وألاحظ بحسرة أنه حتى في المجالس الأكاديمية - وشـأنها الرزانة- أو حتى افتعال الرزانة - ينحدر الموقف دائما إلى نوع من «التشويش» الذى يحول بين بعض الناس وإبراز قدراتهم ، والتـعبـير عنها بالطريقة التى يجـيدونها، فـيضطر بعضـهم إلى تبنى الأسلوب السـائد ، ويلوذ بعضهم - وغالبا ما أكون منهم - بالصمت .

أوقعتنى الصدفة فى الاستمـاع إلى حديث أحد أساتذة علم النفس، من نجوم المجتمع اللوامع، فوجدته يحدد معالم «الشخصية السوية» من الناحية الاجتماعية بأنها تلك الشخصية التى تقف على

«الصراط» بين الطموح والقناعة ، والرضا والغضب ، والتفريط والإفراط، والاختلاط بالناس وتجنبهم، فما أحببت أن أكون تلك الشخصية ، ولا شعرت أننى أتحلى بكثير مما ذكره من صفاتها. ومع أننى أسفت قليلا لوقوعى عنده فى دائرة من عدهم على هامش المجتمع لا فى مجراه ، فقد ذكرنى حديثه بنماذج فولاذية عرفتها ، وحقق تلك الحالة المتصلبة البائسة المسماة بالتوازن ، وذلك بكبت مشاعرها الحقيقية ، والتخفى وراء «الأعين الزجاج» ، و«الأسنان العاج» .

ولم أفلح – نتيجة لصفاتى تلك التى لم أستطع لها تبديلا– أن أنجح فى مراعاة ما يسمى «تقاليد المؤسسة» ، أو «اعتبارات الوظيفة». لفت نظرى صديق – فى جلسة من الجلسات – إلى أننى أتحدث إلى رئيس الجلسة بطريقة لا تليق ، ولما طلبت إليه أن يطلعنى على المواضع التى تجاوزت فيها الحد من ناحية المنطق، أو البرهنة ، أو مراعاة التقيد بالوقائع، وما إلى ذلك ، أجابنى بأنه لا يقصد إلى شئ من ذلك ، وإنما يقصد إلى أننى لا أراعى اعتبارات «الكرسى» . ومع أنه كان رءوفا بى؛ إذ لم يذهب معى إلى الحد الذى ذهب معى إليه أستاذ الشريعة فى مجلس كلية دار العلوم فى

الحادثة التى أشرت إليها فى الفصل الأول ، ولم يذكّرنى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ، فإنه نبهنى إلى الفجوة العميقة التى تفصل فى حياتنا بين الرئيس والمرءوس؛ فقد يكون الرئيس - قبل لحظة- واحدا من الأعضاء، ولكن بمجرد أن يصبح رئيسهم - وقد يكون ذلك بانتخابهم هم أنفسهم إياه رئيسا لهم- تتكون الفجوة التى تسمح له بأن يقول لهم - تواضعا وفرط ديمقراطية!- بأنه واحد منهم ؛ فقد حكى لى هذه الواقعة بعينها من أثق فى صدقه من الأساتذة أعضاء اللجنة العلمية للترقيات قال : كان اجتماعنا الأول وديّا للغاية ؛ تبادلنا فيه حديث المجاملة المعهودة بين الزملاء، واتفقنا فى بساطة أن يتولى «أحدنا» رئاسة اللجنة ، فلما تحول الاجتماع ذاته إلى اجتماع رسمى برئاسته ، صدرت عنه العبارة إياها : «إننى أنظر إلى نفسى على أننى واحد منكم» !!

ومادام حديث «اللجنة العلمية» قد قفز إلى ذهنى ، فلابد أن أقول إننى كنت عضوا فى تلك اللجان المركزية التى تتولى مسئولية النظر فى ترقية المدرسين إلى أساتذة مساعدين ، والأساتذة المساعدين إلى أساتذة فى الجامعات المصرية، ردحا طويلا من

الزمان . وقد عملت فيها مع أصدقاء أكن لهم كل التقدير والمودة ، ولكننى رأيت - فى جانب آخر - صورا من «الألاعيب» ، «والتربيط» «والتحيز المعهدى» . ومرة أصبح منصب رئيس اللجنة (أو مقررها!) شاغرا ، فتنادى الأعضاء بمن ينبغى انتخابه رئيسا. وفى هذا الصدد تلقيت اتصالا من صديق من أصدقائى فى اللجنة يطلب منى أن أضم صوتى إلى صوته فى انتخاب صديق ثالث رئيسا للجنة. قلت له ، بنصف مداعبة : ولماذا لايضم هو صوته إلى صوتك ، وتنتخبونى أنا رئيسا؟ قال ببساطة جميلة كنت أعهدها فيه: أنت لا تصلح! قلت بهدوء ، وبنصف مبالاة : لماذا؟ قال: لأنك ستعطل- بأسلوبك المعهود «المدقق المحكك»- عجلة العمل عن الدوران بالسرعة المطلوبة! لم يغضبنى قوله ، ولكننى استنتجت منه أن هذا هو رأى عموم زملائى فىّ ، وهو أننى غير صالح لأن أقود العمل !

حين أنظر إلى الخلف أشعر أن حياتى قد انطوت بمنتهى السرعة ، وأظن أن ذلك هو إحساس جميع الناس. ولا يعود ذلك إلى أننى عشت حياة رخيَّة ممتعة؛ فقد عانيت من الغربة- المادية والروحية- طول حياتى ، لكننى مع ذلك أتمثل دائما قول المتنبى :

ذكرت به وصلا كأن لم أفز به   وعيشا كأنى كنت أقطعه وثْبا !

ومهما واسيت نفسى ، وذكرتها بالإنجازات التى حققتها ، وحاولت خداعها بعَرْض تلك الإنجازات عليها ، يبقى إحساسى بتسرب هذه الحياة من بين يدىّ مأساويا . ولا يعنى ذلك أبدا أننى أريد المزيد من العيش على هذه الشاكلة؛ فقد ظهر للقارئ من نقدى للواقع الذى عشته - فى شتى نواحيه- أننى لا يمكن أن أكون - بتعبير المتنبى - «جاهلا» ، أو «غافلا» حتى تصفو لى الحياة ؛ فأطلب منها المزيد! ومع ذلك كله- وهذا هو موضع العجب- أعيش من يوم إلى يوم بإحساس من يعتقد أن «المستقبل» يدخر لى «متعة نوعيـة» لم تخطر لى من قبل على بال ! ، وهذا يجعلنى أتعلق بأهداب الدنيا ، ولا أريد أن أفارقها !

الليلة {ليلة الثامن والعشرين من رمضان ١٤٢٤- الثانى والعشرين من نوفمبر ٢٠٠٣} استيقظت - على غير عادتى - فى الرابعة صباحا ، ولم أنجح فى إغراء النوم بالعودة إلىّ . وجدت قلبى يخفق عاليا بقولى فى قصيدة «يوم من أيام كمبردج» :

«لا أطلب مالاً أوجاهاً أو حتى معرفة

أطلب أمن الداخل

ما أطلبه فوق المعرفة وفوق المال وفوق الجاه»

وبقول المتنبى :

«مما أضرّ بأهل العشق أنهمو هَوُوا وماعرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهمو دمعا وأنفسهم فى إثر كل قبيح وجهه حسن»!

وبقول الله تعالى :

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »

صدق الله العظيم

الملاحق :

١- علمونى فتعلقت بهم

٢-على سبيل « الببليوجرافيا »

علّمونى فتعلّقت بهم !

استحضر فى هذا «التذييل» ذكريات قديمة لى، مع نخبة ممن تلقيت على أيديهم أوائل المعرفة. وأنا- بالحديث عنهم- أرّطب روحى، وأنعش أيامى، وأعبّر عن ارتباطات قلبية حميمة، لاتزال تعمر ركنا حانيا فى نفسى. كان بعضهم رحيما بى، وبعضهم قاسيا علىّ، لكننى الآن أحمل لهم جميعا المحبة الصافية، وإلى أيامهم الخوالى الحنين الدائم. وأعلم أن هذه الأسماء لاتعنى شيئا للقارئ، لكننى أذكرها ، وأعيد ذكرها، تلذذا بذلك ، ووفاء لأيام عزيزة فى حياتى . وقد أشرت بطريقة عابرة إلى بعض هذه الأسماء فى كتابى «فى الخمسين» لكننى أعيد الكلام عنها هنا مقرونا ببعض المواقف والأحداث التي لا أنساها . وأرجو ألا أكون متجاوزا حدودى ، حين أجرد هذه الأسماء من ألقابها ، التى لم أتصورها أبدا بدونها ، فهم، قبل الألقاب وبعدها، «شيوخى» الذين أعطر بذكرهم لسانى، وأترحم عليهم جميعا؛ إذ لم يبق أحد منهم على قيد الحياة :

زهرى جبالى

إمام مسجد عائلتى . يتخذ لنفسه فى الضحى ركنا فى مبنى من الطوب اللبن، ملحق بالمسجد ، ويستضيف الأطفال والصبيان الصغار ، حتى يدعوهم سن السادسة إلى أن يلتحقوا بالمدرسة «إلزاما». أُرسلت إليه فى الرابعة من باب «اللعب»، والتخفيف عن أمى وإخوتى البنات من أعباء «شقاوتى» التى كانت محل الشكوى من الجميع. لم يكن بقائى فى الكتّاب مثمرا، ولا كُلفت بشئ من ضرورات المعرفة، وإن كنت أعطيت بعض أصابع «الطباشير» ، وسمح لى أن أمرّ بها على الحيطان في حريّة. كان «أستاذى» يتقاضى نصف قرش من كل صبى صبيحة كل خميس ، وكان أحيانا يهمس لى قرابة الظهر، إن كانت أمى قد انتهت من «الخبيز» فأطير إلى بيتنا القريب، وأعود حاملا له رغيفين أو ثلاثة ، من العيش الشمسى الملتهب الذى خرج لتوّه من بلاطة الفرن ، فيفتح صدره العارى، ويلقى بهما فيه. لا أدرى كيف كان يتحمل الوهج، ولا ما كان يفعل فيما بعد بالأرغفة !

سمع صوت أقدامى على بلاط المصلّى دون أن أخلع نعلىّ – وكان فاقد البصر – فأرسلنى إلى بيتنا دون رجعة !

محمد جمعة

أول من ألقى عليّ درسا فى «الحساب» فى يومى الدراسى الأول . يغيّر ملابسه «الجوخ والشاهى» في دلالة واضحة على الثراء، وصوته جهورى غضوب يبعث القشعريرية فى أجساد كل التلاميذ. حسابه عسير جدا، وما أسرع ما يأمر «عمى عمر» - فراش المدرسة- باحضار «الفلقة»، وتعليق من يغضب عليه، وإلهاب قدميه العاريتين بالعصا الخيزران ، وإرغامه على «العد» حتى يتعب (الضارب لا المضروب) من الضرب. تحداه «السيد عزّوز» - وهو تلميذ هائل البنية يعيش على حواشى القرية- في أمر من الأمور، فعلّقه وظل يضربه على قدميه حتى خارت قواه هو ، وظل التلميذ المشاغب صامدا، لم يُبْد أنّة توجّع، أو اعتذارا عن ذنب، أو التماسا بالتوقف عن الضرب !

لم يخضعنى مرة واحدة للعقاب ، مع أننى لم أكن من المبرزين فى الحساب ، وزاد فطلب منى مرة أن أذهب إلى بيته لبعض شأن من شئونه لا أتذكره ، لكننى اعتبرت ذلك منه علامة رضًا ما بعده رضًا .

عبد اللطيف هرون

الرقيق ، الخفيض الصوت، الفارع القامة، الذى ألقى علىّ أول درس فى المطالعة. الهادئ الذى لا يعرف الغضب. المهيب الذى إذا أطل بطلعته هب الجميع احتراما، ورهبة، ومحبة !. لاأنسى طريقته الرشيقة فى الإمساك بكتاب المطالعة ، وصوته العذب الرخيم حين كان يقرأ لنا. يمّوج صوته بين الجمل «الاستفهامية» «والخبرية» ، فيطل إلينا الفرق بينهما واضحا ، دون أن يرهقنا - ونحن الصبية الصغار - بذكر «الاستفهامية» ، أو «الخبرية» . إنه «الرحمة» تمشى على رجلين !

محمد عبد المتعال

عاشق الشعر، الفنان، الأديب. درّس لى أواخر المرحلة الإلزامية مقطوعات شعرية، وحكايات نثرية كثيرة. أول ما سمعت اسم «المتنبى» سمعته منه؛ كان يضحك بصوت عال، وهو يقول لأحد زملائه :

وما طربى لما رأيتك بدعة　　　لقد كنت أرجو أن أراك فأطربا

ولم أدرك ساعتها سر ضحكه، لكنى أدركت ذلك بعد سنوات طويلة حين قرأت «المتنبى» ولعبه بمشاعر «كافور» .

يترنم فى قاعة الدرس بأشعار أحمد شوقى ، وبأغانيه التى صاغها فى العامية ليتغنى بها محمد عبد الوهاب، ويعطينا الشعر منثورا ، ويطلب إلينا أن نرده إلى وزنه، كما يعطينا «ألغازا» من قبيل قول أحد الجواسيس لملكه ، محذرا إياه من قوة العدو حقيقة، وواضعا كلامه فى إغرائه بغزو هذا العدو ظاهرا: «لقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب قلب الملك: «نصحت فدع ريبك ودع مهلك» فنقلب نحن العبارة لتصير: «كلهم عدو كبير عدٍّ فتحصّنْ». أو يملى علينا القصة التالية بعنوان : لويد جورج السادس. «بينما كان رئيس وزراء بريطانيا الأسبق لويد جورج يصطاد فى إحدى الغابات أدركه المساء، وبدأ يبحث عن مكان يبيت فيه، فلم يجد سوى بناية هى فى الحقيقة مستشفى للمجاذيب. فلما قصدها طالبا المبيت فيها قيل له : من أنت؟ قال: أنا لويد جورج، قيل له : تفضل؛ إن لدينا خمسة يدّعى كل منهم أنه لويد جورج، فلتكن أنت «لويد جورج السادس» !

ناظر مدرستى الإلزامية. نمر عليه فى ذهابنا إلى فصولنا، وفى عودتنا منها، فى وضع «تعظيم سلام!» . يحتفظ فى «دولاب» هائل بالأدوات التى توزع علينا أول كل عام دراسى بالمجان: الكتب، والكراريس، والمساطر، والأقلام، والأساتيك، والمحابر. يستخدم تقديره الخاص؛ فيغدق على من يشاء، ويقدم الحد الأدنى لمن يشاء. ذهبنا «طابورًا» طويلا - نحن تلاميذ «قسم الحفاظ»- لنستلم نسخنا من «مصحف الملك» ، فخص كلاً بمصحف جديد، ولما كنت آخر المصطفين لم أجد سوى نسخة قديمة مرمّمة عرضها علىّ. كنت فى العاشرة- هزيلا نحيلا- وكان هو يناهز الستين، مهيبا جليلا. استجمعت كل قواى- مع أننى لم أكن تلميذا محاربا- وقلت «لحضرة الناظر» فى وجهه: لا! هاله الأمر، وبان فى عينيه الغضب، وكان معروفا بطبيعته الحادّة، والتعليق فى «الفلقة» على طريقة «محمد جمعة». تطلعت إلى الباب المفتوح، وفى لحظة كنت خارجه، وأطلقت ساقىّ للريح، غير مدرك أن باب المدرسة الرئيسى يبقى موصدا دائما. لم يكذّب الشيخ خبرا، وجرى ورائى، وقبض على بيد من حديد، ولم تنفع شفاعة الشافعين لى، وأنا أقطع

معه الرحلة الطويلة عائدين إلى «دولاب» التوزيع. أطلق يدى، وجلس صامتا فى المكان ذاته، وبقيت أنا واقفا ، مرتعشا، خافض الرأس. وبعد فترة تخيلت أنها دهر، فتح ركنا آخر فى الدولاب، وأخرج نسخة جديدة تماما من المصحف، وقدمها لى مبتسما، فتسلمتها بقليل من التوجس وفؤادى يرقص فرحا، وأديت تحية «تعظيم سلام»- وكانت فرضا لازما- وانصرفت!

تعلمت منه أن الحنان الأصيل ينبغى أن يتغلب دائما على الغضب الدخيل !

محمد على «الصغير»

ابن خالتى: الوسيم، الأنيق، المتقد العقل والقلب، الطموح إلى العلا، عاشق المجد والمعرفة، ودرّة «آل قنيش». يتفنن فى لف العمامة على الطربوش فيبدو مثل ملك متوّج. يختار ملابسه من «البندر» من «بنزايون» ، و«عدس» ، «وريفولى» ، وقليلا ما تكون من «شركة بيع المصنوعات». هندامه متميز بين أقرانه ، يضمن له مكانا بين الأعلام المتألقين من وجهاء وأعيان «جهينة» كلها!

حين دخل دائرة وعيى ، كان مدرسا إلزاميا فى قرية «نزّة الدقيشية» التى تقع شمال «جهينة» فى اتجاه «طهطا». له حمار

مطهم، مدلل، مزين «بالبردعة» ، «والركاب» ، «واللجام» ، «والرشمة» المسبلة من الحرير على عينيه. له رحلتان- على هذا الجحش - يوميا، صباحية ومسائية. أملأ عينىّ من هيئته الجميلة كل صباح حين يمر ببيتا ذاهبا، وكل مساء حين يعود. يشتمل شتاء ملابس شتوية سميكة من الجوخ والصوف، وأما فى الصيف فزيّه معرض ألوان زاهية : الصوف «الفانلة» الخفيف، والقطن الرقيق، والسكروتة الحريرية. عمامته شاهقة البياض، وحذاؤه كلاسيكى، سميك، لامع .

أحلم باليوم الذى أتخرج فيه مثله من «مدرسة المعلمين» ، فأصبح من مدرسى القرية، وأنضم إلى مجلسه. فتح لى خزانة كتبه، وقدم لى ماكنت أسمع عنه سماعا : «المنتخب من أدب العرب» ، «كتاب الجيب» ، «مغامرات اللص الظريف : ارسين لوبين» ، «شرلوك هولمز» ، «ألف ليلة وليلة» ، «المقتطف» ، «المصور» ، «الأهرام» - وعجائب أخرى لاتحد. ويوم نشرت «الهلال» استفتاءها الصيفى عن «أى أنواع الجمال تفضل» ، مصحوبا بمجموعة من صور الفتيات الجميلات ، طلب إلىّ أن أدلى برأيى - وكنت صبيا صغيرا- فما أحرت جوابا! الح فى الطلب، فنظرت إلى صور «الجميلات» ، واخترت صورة كتبت تحتها عبارة :

«الجمال المرح» ظانا أننى بذلك سأدخل على قلبه السرور. ازورّ عنى قليلا ، وفتح عينيه الواسعتين الزرقاوين ، وردهما بينى وبين الصور فى شئ من خيبة الأمل. ثم صمت، وأطرق، وانتظرت، ثم رفع رأسه وزفر زفرة- لاأشك الآن أنها كانت ذات معنى- وقال لى: لا يوجد من بين أنواع الجمال ما يمكن أن يعدل «الجمال الحزين»! كان جادا ، ومتأثرا ، كما كان حزينا ، وبدالى- حتى فى تلك المرحلة التى لم أكن أدرك فيها شيئا عن عالم العاطفة- أنه كان يود، لأسباب غامضة علىّ ، أن يكسبنى إلى جانبه. ومازال بى، يشرح لى الفروق الدقيقة بين النوعين- المرح والحزين- حتى تفجرت مشاعرى نحوه بنوع من المشاركة الوجدانية «الطفولية» ، وأدركت أنه لابد فى حاجة إلى نوع من «التضامن» حتى ولو أتى من شخص مثلى؛ فملت بكل روحى إليه، ورضيت - طائعا مختارا - أن أغير رأيى فى نهاية الجلسة، وقلت له إننى أنا كذلك أفضل «الجمال الحزين»!

ثم كانت نكسة عمرى، وهى إخفاقى فى مسابقة الدخول إلى «المعلمين»، وتحولى إلى الأزهر. ولا أنسى الحزن الذى أصابنى نتيجة ذلك ، والذى لم يخرجنى منه إلا مواساته وتشجيعه لى،

وتزيين الأزهر لعيني، باعتباره تعليما مفتوحا، يمكن أن ينتهى بى إلى أن أكون شيخا للأزهر كالشيخ المراغى (وكان وقتها شيخ الإسلام)، وقريته على مرمي البصر من قريتنا .

كان معروفا على مستوى أقرانه جميعا بأنه شعلة فى علم الحساب، وكنت أنا أعانى من مشكلات فى هذه المادة بالذات منذ دخلت الأزهر. وقد تولاّنى صباح مساء، وجمع لى نخبة من أبناء القرية حتى نعمل فى جماعة ، وكافح معنا سنة وراء سنة، حتى إذا ما وصلت لابتدائية الأزهر، كنت قد أصبحت متألقا فى تلك المادة، «وطولت رقبته» يوم الامتحان !

وكان لا يفتأ يصحبنى بعد أن أصبحت يافعا إلى مجالس الأعيان والمتعلمين فى القرية، ويزج بى فى مناقشاتهم، ويبث الثقة فى نفسى حتى أتغلب على خجلى، ويطرى مواهبى، ويمتدح ذوقى فى الطعام والشراب واللباس، وأصوات المطربين والمقرئين، الذين مازلنا نختبر مجاميعهم الهائلة حتى استقر «ذوقانا» على ثلاثة منهم لم نضف إليهم، ولم نغير منهم، حتى افترقنا فى أوائل الستينيات، حين انقطعت أنا عن زيارة القرية بسفرى إلى لندن. كان مصطفى اسماعيل أول الثلاثة، وكانت الثانية أم كلثوم حين تشدو بالقصائد لا باللغة العامية ، وكان الثالث عبد الوهاب القديم (لا الجديد!) .

وحـــين تخــرجت فى دار العلوم، وأعلنت لأهلى أننى أنوى الزواج من إحدى زميلاتى خريجات الجامعة، لم يكن سهلا عليهم فى جـو «التـزاوج الأسـرى شـبـه القـبلى» الذى كـان سـائدًا ، أن يوافقوا دون تحفظات. لكنه وقف إلى جوارى فى صلابة، واستخدم نفوذه الأدبى الواضح على الجميع؛ معلنا أن هذه هى «الصيغة» الوحيدة التى تلائمنى، وتليق بى، فـأخـرس بذلك- وهو المتـزوج بالطريقـة التـقليـدية- الألسنة التى ارتفـعت، فى أطراف عـائلتى الممتدة، تنتقد بنات الجامعة اللائى يخرجن إلى الطريق «عاريات الرءوس ، عاريات الأذرع، عاريات السيقان»، في تلميح لا يخفى إلى الحالة التى كنت أقدمها لأهلى فى أعماق الصعيد.

ثم هبت علىّ رياح التغيير، بذهابى إلى لندن، وعدت أجلس بين أهلى بين الحين والحين- فى جهينة- فنعقد المناقشات. وكانت أول عبارة صدرت منى، واعترض عليها، هى عبارة أن «الحقيقة قد تتعدد»! استنكر ذلك بكل ملامح وجهه وصوته، وقال- وهو السيف القاطع الباتر، صاحب المبدأ الواحد، المعتصم أبدا بالنموذج والمثال- لا يادكتور! الحق واحد، والحق حق. هكذا تعلمنا، وهكذا نعتقد إلى يوم الدين ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف! لكننى فهمت

عبارته على أنها تقول أكثر من ذلك. فقد خيل لى أنه يقول لى بصريح العبارة: هل هذا ما جئتنا به من لندن؟! استشعرت الخطر، وشرحت مقصودى بما ضمنته رغبتى في استعادة ثقته- التى كانت مطلقة- بى. لكنه ظل يردد عبارتى لنفسه طول الجلسة : «الحقيقة قد تتعدد»! «الحقيقة قد تتعدد»! يرددها دهشا، مستنكرا ، مرتعش الشدقين، وهو فى حالة غضب لم أعهدها منه من قبل .

وانقضت الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، ومرض بسرطان الحنجرة، وحمل إلى القاهرة، وتنقل من مستشفى إلى مستشفى. وتأخرت حالته، فاستقر فى أحدى مستشفيات «روكسى» بمصر الجديدة. ذهبت لعيادته، وكان فاقد الصوت، فضغطت على يده، وضغط على يدى، ولم أتكلم. مدّ يده تحت الوسادة، وأخرج لى رسالة كان قد وجهها إلى مدير المستشفى يشتكى فيها من أنه يظل طول الليل يضغط على الجرس لحاجته إلى العون، ولا يلقى مستجيبا . كانت الرسالة بليغة جدا ، أعادتنى إلى أيام شبابه، حين كان يدبّج بخطه الكبير الجميل، المائل إلى ناحية من نواحى الصفحة، رسائله إلى محبيه وتوجيهاته إلى تلاميذه ومرءوسيه .

مسّت رسالته شغاف قلبى، وتذكرت بأسىً بالغ أياما كان فيها نموذجا للدفاع عن حقوقه وحقوق الآخرين، توّاقا إلى تصحيح مسيرة الحياة، حفيا بالضبط، والدقة، وتجويد العمل، وواقعا بذلك دائما فى الفجوة المستحيلة بين رفض الواقع والعجز عن تحقيق «المثال» .

ومما حزّ فى قلبى أن ختام رسالته كان ينطوى على مسحة ضعف لم أتعودها منه قط؛ فعلمت أن المرض هازمه لامحالة : «لعلك لا تعلم أننى أنهيت حياتى العملية فى وظيفة تربوية إشرافية مرموقة، كنت فيها إذا دعوت أحدا بضغطة على الجرس لبّى دون إبطاء ، واليوم أكرر الضغط وأكرره، وأنا فى أمس الحاجة إلى العون ، وما من مجيب .

حزنت ؛ لأن مواطنا «مصريا» كان يدفع نفقات علاجه في مستشفى «مصرى»، ولا يلقى رعاية تذكر، وحزنت أكثر وأكثر لأن هذا النموذج الجميل كان يرقد على فراش الإهمال، يعانى سكرات الموت، على بعد خطوات من بيتى فى روكسى، فى حين كنت أنام فى فراشى مستريحا، عاجزا عن تخفيف أى قدر من آلام إنسان أحببته على طول السنين !

على الرّمكى

من حـفظت على يديه القـرآن، فـوصلت إلى الأزهر. الحنان كله، والحزم كله، والصوت القرآنى الجميل، الذى إذا سمعك تلحن فى القراءة أدنى لحن جلجل مصحا فى نغم متصاعد مهيب، حتى يبلغ جـواب الجـواب. إذا غـمـرنى حنانه نسـيت أنه مـعلمى، وإذا زجرنى على عدم التدقيق عادت إلى خيـالى صـورة عبد اللطيف هرون، لا صـورة مـحمد جمعة، أو أحمد فرغلى. يستعذب صوتى فيرخى لى عنان القراءة بإشارة من يده، فإذا تلجلجت صَبَر علىّ، وأمعن فى الصبر، فإذا استصرخته روحى فتح علىّ بذكر أول كلمة فى الآية التى نسيتها. امتزجت روحانا ، وتم بيننا تواصل صامت؛ يوجههنى فيه بحركات يديه، كما يوجه المايسترو أفراد فرقته فى الموسيقى، وأستمر فى القراءة حتى تتجسد الآيات الربانية فى صوتى ، وفى وجدانى ، فأتحد بها، وبمعلمى؛ تتعلق عينى بإشاراته، ويتعلق قلبى بمحبته.

يجلس هو على الأريكة، وأجلس أنا على البسـاط. يلحظنى بعين ملؤها الحنان واليقظة، وألحظه بعين ملؤها الحب والحذر؛ فإذا التقى طرفا الدائرة الشعورية بيننا وأغلقت علينا، أعطانى إشارة

البدء فأنطلق فى أمان. وصلت معه مرة من سورة مريم إلى قوله تعالى ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ ، ولا أدرى ما الذى اعترض عقلى فتوقفت ، فلم يفتح علىّ. ولما طال صمته عددت هذا نوعا من الهجران فاستصرخته روحى، فجاد على؛ وجاءنى صوته متدفقا، مسترسلا، بديعا، فى فيض حسبته لن يتوقف: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

حين انتهى من القراءة السماوية كنت قد انفصلت عنه، وهمت في جو روحى خالص؛ فقد تصورت - والله يغفر لى؛ أنا الصبى الملتهب الخيال المفعم بالتهيؤات- أن الخطاب يتجه إلىّ ، وأن علىّ أن آخذ الكتاب بقوة، وأتهيأ- أنا الصبى- لتحمل مسئولية الحكم- أى حفظ الكتاب- وشملنى جو الحنان، والزكاة، والتقوى، والبر بالوالدين، والتطهر من الجبروت والعصيان، وحل علىّ سلام ممتد من الميلاد حتى الموت وما بعده يوم أن نبعث أحياء. كان علىّ أن يطابق بدئى نهايته، لكنى لم أفعل ، فأعطانى أشارة مؤكّدة بيده للبدء فلم أستجب لها، فأمرنى برفع بصرى والنظر إليه ، فانصعت للأمر ، ورفعت إليه وجها مبللا بالدموع !

لم يقل شيئا ، ولا قلت أنا شيئا ، لكنه أعلن انتهاء الجلسة قبل أوانها ، فحل علىّ القلق والارتباك. وأمرنى بأن أجمع أدواتى، وأنصرف، فأخذت فى لملمتها ، وكانت كثيرة: اللوح، والقلم، والمصحف، والمحبرة، والقرطاس، ولفافة طعام كانت أمى قد وضعتها لى فى «مخلاتى» لأتبلغ بها عند الحاجة. وحين أصبحت جاهزا ، كان علىّ أن أؤدى تحية الانصراف ، وهى أن أقف فى وضع التحية، خاشعا كأننى فى صلاة، خافضا الطرف، طالبا الإذن، حتى يؤذن لى فى المغادرة. وإذ أعطيت الإذن، نظرت نظرة عجلى حتى لا أتعثر فى محتويات المكان، وهناك رأيت معلمى يجلس فى سكون، وخيّل إلىّ أن فى عينيه بعض الدموع !!

أحنّ إلى أيام «سيّدى» طول عمرى، ولا ينقطع حزنى عليه. وأتألم لأن الزمن لم يمهله حتى يكون لى مال خاص أتمكن به من أن أقدم له هدية تتناسب مع الامتنان الذى يكنه له قلبى !

فتحى عبد المنعم

درّس لى «الحديث النبوى» فى معهد أسيوط الدينى. كان الأزهريون يسمونه «طه حسين». فاقد لنعمة البصر، ومتأنق إلى حد كبير، وعليه آثار النعيم، المتمثل فى أن له خادما أنيقا هو الآخر، يقوده أنّى ذهب، ويوجد معه أنّى يكون. سمعت أنه متبحر فى اللغة الفرنسية، وأن وجوده مدرسا فى الأزهر وجود مؤقت، وأنه يزمع الرحيل إلى عاصمة النور، مقتفيًا خطوات طه حسين.

إذا تحدث أخذ حديثه بألباب السامعين ، ووضعنا نحن المراهقين الصغار فى حالة من الوجد الشعورى تتجاوز حدود الكلمات والعبارات فى النص المشروح إلى تخوم الوجد الصوفى، كل ذلك والمفردات هى المفردات، والعبارات هى العبارات. من قلبه يتحدث، وبيانه بيان لايقاوم ، وفى صوته رنين عميق مشبع بالموسيقى وبالشجن. لا يخفى جوا بالإحساس بالتميز، تراه فى قامته الممشوقة، وهامته المرتفعة، ولعبه الحر المقتدر بالتعبير.

امتدت سمعته بسرعة خارج المعهد الدينى، وأصبح اسمه حديث المنتديات. ومرة أظهر من قدرة ذاكرته الحافظة العجب العجاب: دعينا معشر الطلاب، للاستماع إليه مساء خميس من

شتاء ١٩٤٩ فيما أتذكر فى محاضرة يلقيها فى قاعة المحاضرات بالمعهد الدينى، وكانت قاعة بديعة لم أر لها مثيلا بعد رحيلى من أسيوط . كان مدير الإقليم هو الشاعر عزيز أباظة، وقد فاجأ الحضور بأنه بينهم ، وقد جاء ليستمع إلى هذا الخطيب المحدّث المعجزة الذى طبقت سمعته الآفاق. كانت مجلة «المصور» تصل أسيوط يوم الخميس صباحا، وقد تضمنت قصيدة منشورة لعزيز أباظة ذلك الصباح. وفوجئ الناس بفتحى عبد المنعم يوجه حديثه وجهة ناعمة حتى انتهى إلى الاستشهاد ببعض أبيات تلك القصيدة! وقف يتلو بصوت شعرى جميل (ولم تخنى الذاكرة!) !

عالم يزخر بالخُلف — ويغلى كالمراجـل

يقلب الباطل حقا — ويردّ الحق باطـل

وبلاد تخلف الوعد — وسُوّاسٌ تَماطــل

كان الكفاح الوطنى للتخلص من المستعمر على أشده ، وكانت المفاجأة مذهلة للجميع، ولعزيز أباظة نفسه، بأن وعت ذاكرة فتحى عبد المنعم قصيدة لم ترها أسيوط إلا صباح ذلك اليوم نفسه. واختلطت المفاجأة الأدبية بالمشاعر الوطنية فدوت قاعة

السينما- كما كنا نسميها- فى معهد أسيوط بتصفيق حاد متواصل لم أسمع له مثيلا من قبل فى مناسبة صغرت أو كبرت.

وإذ كان العهد عهد المساجلات والمناظرات الحرة؛ فقد انعقدت مناظرة شهيرة ذات ليلة طرفاها هو وأديب أزهرى معروف آخر كان مدرسا فى معهد أسيوط هو عبد الرحيم فودة. كان موضوع المناظرة : «هل أدى الأزهر رسالته»؟. أخذ فودة الجانب المؤيد، وأخذ عبد المنعم الجانب المعارض، ودارت المعركة سجالا طول المساء ، وطرفا من الليل ، وصال عبد المنعم وجال، ووصف، وبرهن ، وقارن ، وتحدى ، حتى لم يدع مجالا فى نهاية المطاف لأدنى شك فى أن كفته هى الراجحة. ولم يأبه إلى أن من بين مستعميه متعصبين للأزهر، وأنهم يتألمون إذ يرونه ينتقد ، ولم يأبه لأنه يمثل الجانب الذى يسبح ضد التيار. والذى أذكره أنه ظل فى حالة من الكر والفر حتى استمال الناس جميعا إلى جانبه، وخرج محمولا على الأعناق .

حين التحقت بمعهد القاهرة سنة ١٩٥٠ وجدته مدرسا هناك، وكان يستعد للسفر إلى باريس ، وفى الثمانينيات كنت فى زيارة لفرنسا ، فحُدثت عن حياته ، وآلامه ، وهجرته عن أرض الوطن،

وتعلقه بحلم تكرار تجربة طه حسين، التى يبدو أنها لم تتحقق له ، ورغبته فى العودة ، ثم عودته المؤقتة بالفعل (إن لم تخنى الذاكرة)، ثم إحباط مسعاه الذى عاد من أجله (وهذا متكرر وروتينى!) ثم عودته محبطا مرة نهائية إلى باريس ، ثم مرضه ، وموته !

من الواضح أن جسد فتحى عبد المنعم لم يكن على مقاس روحه، وأن البيئة التى نشأ ، وتعلم فيها ، لم تكن مهيأة لتوفير الأجواء التى تتسع لتحليق تلك الروح .

أحمد الشرباصى

درّس لى فى معهد القاهرة مادة لا أتذكرها، ولا أظن لذلك أنها كانت مادة أساسية. لعلها كانت مادة «السيرة» ، أو «أدب البحث والمناظرة». أتذكر تجوله بين الصفوف جهير الصوت، فصيح الكلام، واثقا من تأثيره على الأسماع والقلوب ، حفيا بزيّه الأزهرى ، ساخرا من الخاملين والكسالى !

حين هبطت القاهرة كان هو ملء السمع والبصر. يتردد صوته على أكثر من منبر، ويقدم المواسم الثقافية الحافلة لجمعية الشبان المسلمين ، وكان يؤمها الأزهريون، وطائفة واسعة من

مريدى الثقافة فى منتصف القرن الماضى، وحتى العقود المتأخرة منه .

كان من حظى مرة أن جلست إليه فى الامتحان الشفوى أول عهدى بالقاهرة سنة ١٩٥١. ردد الطلاب المتجمهرون فى الخارج مخاوفهم من «الشرباصى» ، وقالوا إنه يعصر من يقع أمامه عصرا ، ثم انصرفوا يرددون كذلك محفوظاتهم من الأشعار العقيمة على مسمع منى، وجلست أنا راضيا بنصيبى، ومرددا فى خاطرى ما أعددته من محفوظات لتلك المناسبة السنوية التى كنت أحسب لها حسابا فى حياتى، وأعدها فرصة سانحة لى أبهر فيها الممتحنين من الأزهريين بمحفوظاتى غير التقليدية . وكانت أم كلثوم قد غنت فى الموسم ذاته «رباعيات الخيام» فحفظتها عنها عن «ظهر قلب» ، لكننى لم أكن متأكدًا أن أسلوبى المعتاد سيرضى الشرباصى الذى كان مختلفا عن عامة الأزهريين .

نودى على اسمى فدخلت «بنصف ثقة» فى نفسى، فلم يطلب إلى الجلوس، واستمر «الشرباصى» فى الحديث بصوت عال إلى زميله فى لجنة مجاورة، شاكيا من الأشعار الهزيلة البائسة التى استمع إليها ، حتى دخولى، من الطلاب، فتغلبت على خجلى،

وانتهزت واحدة من فرص حياتى، وقلت له دون تمهيد «أنا الذى سأسمعك الأشعار غير التقليدية!» حملق فىّ بين ساخر، ومصدق، ومكذب، وقال فى نبرة لاتخلو من التحدى: «اجلس وهات ما عندك»، فجلست ، وجلبت بعض الطمأنينة إلى نفسى، وبدأت أنشد بصوت ثابت، شبه محايد، وأميل إلى منطقة القرار :

سمعت صوتا هاتفا فى السَّحَر　　　نادى من الغيب غفاة البشر

هبُّوا املأوا كأس المنى قبل أن　　　تملأ كأس العمر كف القدر

نظرت إليه فوجدته قد طأطأ رأسه، آخذا إياها بين يديه ، وكأنه بدأ ينزلق إلى عالم آخر، فاسترسلت، بذات النبرة، إلى رباعية ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة، وسادسة، وسابعة، وهو لا يغير من وضعه، ولا يعترضنى بأى كلام، أو بأى سؤال، وبعد ذلك توقفت ؛ فقال بصوت رءوف : زدنى واحدة، فزدته واحدة، فقال: زدنى ثانية؛ فزدته ثانية؛ فقال لى : فتح الله عليك! أتريد أن تمضى «سالما غانماً»، أو تريد أن تجيب عن بعض الأسئلة (وكان معروفا عنه أنه يلتزم اللغة الفصحى فى جميع خطابه)؟ قلت له : بل أريد أن أبقى فى حضرتك ، وأن اجتهد فى الإجابة عن أسئلتك؛ فوجه إلىّ أسئلة هيّنة عن الخيام وبلده، وفلسفته، وعن رامى، وعن أم

كلثوم، وعن الغناء، ثم عن إقليمى وتعليمى، وقراءاتى العامة والخاصة، وبدا مرتاحا لإجاباتى ، وأذن لى بالانصراف .

حين أعلنت النتيجة وجدت نفسى حاصلا على الدرجة النهائية، وكانت «أربعين من أربعين» ، ثم حين لقينى فى إحدى طرقات جمعية الشبان المسلمين خرج عن طريقه، ورحب بى، وطلب إلىّ أن أزوره فى غرفته ، بعد ندوة الشعر التى كانت ستعقد ليلتها، واستمرت علاقتى به حتى تركت الأزهر إلى دار العلوم .

فؤاد السيّد

من طوّع لى فن الإنشاء، وساعدنى على ضبط العبارة العربية؛ إذ درّس لى هذا الفن فى معهد القاهرة سنتين متتابعتين. كان يقول لى إن الجملة العربية كالموجة البحرية، لها قرار فى عمق البحر، ولها نمو تتشخص به وتتكامل، ولها ذروة حية، ثم لها تكسُّر على الشاطئ! ابحث عن جذورها فى نفسك، ولاحظها حتى تخرج سليمة، ثم ابنها بعناية، ولاحظها فى تطورها «الدرامى» وتكاملها، حتى تصبح تكوينا متناسقا، ثم ارفدها بالمقويات حتى تصل الذروة الطبيعية، ثم راعها حتى تنحل فى سلام على شاطئها! وكنت- لحبى له - أتشرب نصائحه تشربا؛ فإذا جاء وقت توزيع كراسات

الإنشـاء، بعـد تصـحـيحـهـا، على الطلاب، أطرى «موضـوعـاتى»، وانتـشى طربا لأسلوبى، وأعطانى الدرجـات النهـائيـة دون تردد، واحتفظ بكراستى فلم يعدها إلىّ إلا بعد حين .

حدثنى أحمد مختار عمر – وكان فى ذات الصف وإن كان فى فصل آخر– أن فؤاد السيد كان يحمل كراستى إلى فصلهم ، ويقرأ عليهم منها ما يعده نموذجا يحتذى، وكنت أنتشى لأخبار دورة الكراسة على الفصول ، وإن لم يخبرنى هو بذلك قط.

ويوم الامتحان العام كان علينا أن نكتب فى موضوع السيول التى اجتاحت الصعيد، وشردت الآلاف، وبعد انتهائى منه وجدت فؤاد السيد فى انتظارى. قال لى فى حدب ولهفة: حدثنى بالتفصيل عما كتبته فى هذا الموضوع، فأخذت أتلو عليه حفظا ما كتبته فى ورقة الامتحان، وهو مندهش أشد الدهشة، وكنت قد قرأت فى «الرسالة» القديمة عبارات شعرية جميلة فى مقال لأنور المعداوى ، فاقتبستها فى وصف حال المشردين بالسيول ، وبقاء الحكومة فى القاهرة منعّمة فى مكاتبها، وقارنت بين حالتى ترف ونعيم هنا، وتشرّد وشقاء هناك ، ومضيت «أسمّع» لفؤاد السيد العبارات التى استخدمتها من «المعداوى» :

«ألا ما أعجب الدنيا التى تفرق بين بنى البشر، وتدفع بكل حى إلى سبيل ؛ بسمة ترّف على الشفاه هنا، ودمعة تقرّح الجفون هناك، وحياة فى موكب الصفو تمضى، وحياة فى موكب الشجن تقيم، وكأس مزاجها الشهد للسكارى، وليس فيها للحيارى نصيب ، وليل يقصر، وليل يطول، وندامى، ويتامى، وفرحة يهتز منها شعور، ولوعة تلتهب منها صدور» ثم مضيت فى تلاوة الموضوع ، وكان فيه انتقاد لاذع للحكومة ممثلة فى وزارة الشئون الاجتماعية؛ فكان مما قلته «أين أموال وزارة الشئون التى تصرف فى غير «الشئون» ؛ فبان على فؤاد السيد التأثر الشديد والقلق، ولم يستطع أن يحبس دموعه– وكانت مأساة الصعيد لاتزال حية جدا فى النفوس– كما لم يستطع أن يخفى قلقه علىّ، قائلا لى : إنك تهاجم الحكومة بشكل فظيع ، ألا تخشى من ذلك؟ قلت له : «أنا لا أخشى شيئا، وأستريح جدا للتعبير عن أقصى مالدىّ من المشاعر» ؛ فطلب إلىّ أن أخبره بنتيجة «الإنشاء» حين تظهر نتائج الامتحانات ، وحين لقينى بعد شهور– وقد ظهرت النتيجة– أخبرته أننى حصلت على «الأربعين من الأربعين» فتهلل وجهه فرحا، وكان ذلك آخر عهدى به !

محمد خليفة

أول ما سمعت عنه كان من شقيقى الأكبر ، الذى يسبقنى بخمس سنوات فى التعليم الأزهرى. كان أخى طالبا فى معهد أسيوط، وكنت أنا صبيا صغيرا. وفى إحدى العطلات حمل لى كراسة أنيقة مطبوعة، تشتمل على قصائد قالها ثلاثة مدرسين فى معهد أسيوط، بمناسبة احتفال المعهد بالعام الهجرى الجديد- وكانت الحرب العالمية الثانية على أشدها. مررت بعينى على السطور المنسقة، والأسماء المجهولة. لم أفهم شيئا مما قرأت لكن «النغم» فى قصيدة محمد خليفة استوقفنى :

يا هلال السماء أشرق فبدد　　　سحب الحرب والقتام المعقد

السماء التى أقلتك غامت　　　لا ترى فى بروجها ضوء فرقد

وأخذت أردد الكلام فى خلوتى، وأتسلى به عن الوحدة الهائلة التى كنت أعانيها رغم وجودى بين أقرانى، حتى سقط الإيقاع إلى أعمق أعماق نفسى، وبقى الحلم الذى يراودنى برؤية محمد خليفة حيا.

وفى سنة ١٩٥٣، وكنت على وشك الانتهاء من تعليمى الثانوى الأزهرى، دخل علينا محمد خليفة ليدّرس لنا الأدب

الأندلسى فى معهد القاهرة : آية من آيات الوسامة، والوجاهة، وعصرية الهندام، أما حين تحدث فقد سيطر صوته العميق ذو البَحّة الخفيفة على كل مجامع نفسى. كان صوتا موسيقيا بطبعه ، كأنه شعر- مهما كان موضوعه- أو كأنه منحوت من الطبيعة العذراء- مزيج من خشونة الغابة، ورقة أحواض الزهور! ثم ماهذه السماحة فى القول، وهذه الغزارة فى الاستشهاد بكنوز الماضى، وهذه الدعابة المصحوبة بابتسامة عذبة تجعلها تصل بسرعة البرق إلى القلوب؟ لا، ليس لمحمد خليفة من مثيل فيمن رأيت من قبل من أساتذتى الذين أحببتهم من الأزهريين : كلاسيكى؟ نعم. رومانسى؟ نعم. أنيق المظهر؟ نعم وزيادة! جميل الروح والفكر؟ نعم وزيادة! وتعلقت به فى صمت !

وبعد مرور ربع قرن من الزمان نقل لى زميل من زملائى فى دار العلوم- وكنت قد وصلت إلى درجة أستاذ مساعد بها- أن محمد خليفة يود أن يرانى! لم أصدق نفسى، وطرت فرحا. وتولى زميلى ترتيب كل شئ : قال لى إنه يسكن فى ڤيلا خاصة فى حمامات القبة، وأنه سيكون فى انتظارنا فى وقت كذا، من يوم كذا، فأخذت سيارتى لالتقاط زميلى من ميدان التحرير، وأعددت لمحمد

خليفة هدية بسيطة، هى نسخ مما كتبت من أعمال حتى ذلك الوقت، مقدراً أنه سيفرح بها، كما كان يفرح دائما بكل بادرة «نباهة» تبدر منى. وقد علمت أنه كان يشغل فى ذلك الوقت منصبا فى المعاهد الدينية يجعله مسئولا عن كثير من «الترقيات والتنقلات والتعيينات».

حين وصلت إلى ميدان التحرير لم يكن زميلى وحده، وإنما كان بصحبته آخر لم ألتق به من قبل، وقد قدمه لى على أنه أخوه، فما أعرت ذلك اهتماما، وتحدثنا فى الطريق الطويل إلى حمامات القبة فى زحام القاهرة، حتى وصلنا. طرقنا الباب، وانتظرنا، وحين فتح لنا محمد خليفة ورآنى تهلل وجهه، لكنى لاحظت أنه حين رأى الشخص الثالث الذى معنا اربدّت ملامحه فجأة ، وذلك قبل أن يقودنا إلى الداخل، فتوجست شرا. وماكدنا نجلس، حتى تكشفت جوانب المؤامرة: الشخص الذى معنا مدرس فى أحد المعاهد الدينية، وله مشكلة تقع ضمن مسئولية محمد خليفة. وقد استدرجنى أخوه لأكون- بوجودى- شفيعا لدى «الشيخ». ولم يضيع صاحب الحاجة وقتا، وبدأ مناوراته متنقلا من حديث النفاق المعهود، والطلب الفج، إلى إطرائى أنا «بالمرة»! والتوسل عند الشيخ، مستحلفا إياه بحبه لى، أن يقضى له حاجته!

كانت الجلسة ثقيلت الوطأة جدا عليّ، ولابد أنها كانت كذلك على محمد خليفة. لم يعطنا «صاحب الحاجة» فرصة واحدة لحديث الذكريات، أو حتى تبادل التحية على وجه ملائم! وحين ضيّفنا، وساد الصمت، أصبح الانصراف محتّما، وخرجنا من الجو الثقيل المتوتر، وعدت مثقلا بحملي إلى ميدان التحرير!.

طويت بعد تلك الحادثة، صفحتي مع زميلي ، ثم طوى موت محمد خليفة الوشيك صفحتي معه !

عبد الوهاب عبد العزيز

شيخ معهد القاهرة الدينى أوائل الخمسينيات من القرن الماضى، أيام كنت طالبا فيه. العالم الجليل الرفيع القدر بين كبار العلماء من الأزهريين. صاحب الهيبة والوقار. من يرهبه الجميع. حين وصلت من «أسيوط» إلى «القاهرة» كنت أرتدى الزى الأزهرى، وكان موضوع التحول من «العمة والكاكولا» إلى «البدلة الإفرنجية» قضية مثارة بشدة فى الجو الأزهرى: الطلاب النشطاء المتطلعون إلى «التحديث» «يشدّون الحبل» ناحية الزى الأفرنجى، والمشايخ الكبار يتشبثون بضرورة الالتزام بالزى الأزهرى التقليدى.

كنت ألبس مدة الدراسة– ومعظمها خريفى شتوى– «كاكولا» من الصوف الانجليزى، مشقوقة من أمام، ولها ياقة متوسطة الطول، وأزرار كبيرة لامعة، تتحكم فى بقائها مقفلة علىّ إن أردت، وقد أبقيها مفتوحة؛ تهويةً أو اختيالا ؛ ألبسها فوق «قفطان»، مصنوع من القطن الشاهق البياض، مفتوح فى منطقة الصدر، ويأخذ شكل الجلباب العادى فى بقيته، وأتحزّم عليه بحزام حريرىّ محتشم الألوان. عمامتى شاهقة البياض، على طربوش «مغربى»، وحذائى مفصّل فى طهطا أو سوهاج ، على النظام الكلاسيكى الإنجليزى المسمى «ساكسون» ، أبقيه نظيفا دائما عن طريق تلميعه عند ماسح الأحذية المشهور فى شارع الأزهر، بجوار صبيح الكتبى ، وذلك قبل أن أدلف إلى مبنى المعهد الكائن وراء الأزهر، من جهة أطلال الدّراسة .

كان عبد الوهاب عبد العزيز يحارب بى معركة «العمامة» ، ضد «البدلة»، ويتخذنى نموذجا للأزهرى الذى ينبغى أن يكون! وكنت أسمعه يحاور المتمردين على «العمامة والكاكولا» قائلا لهم : «ماعيب زىّ محمود الربيعى؟ وماذا تأخذونه عليه؟» كنت آنذاك في الرابعة الثانوية ، وقد بدأت أتفجر بالشباب، وأهتم بمظهرى، وكيانى

الأزهرى، وأسعى إلى ترسيخ مكانتى لدى زملائي وأساتذتى، وأتهيأ للمرحلة الجامعية .

وكنت أسعى إلى أصدقائى المتطلعين إلى العصرية من الذين غيروا الزى، وجلستهم عامرة دائما فى مقهى الفيشاوى الشهير؛ فيحدثوننى عن ضرورة «التغيير» ، وعدم صلاحية الزى الذى أرتديه لما وراء ميدان العتبة، وأننى إذا كنت حقا أريد أن أكون من رواد «دار الكتب» ، أو الندوات الثقافية ، أو التنزه على شاطئ الجزيرة، أو الذهاب إلى الأوبرا ، فلا مناص من التخلص من الزى الأزهرى .

وقد أدرت الأمور فى ذهنى ، وفكرت فى «مستقبلى»، واستجبت لنوازع «الحداثة» فى قلبى ، وجنحت مع الخيالات والأوهام التى كانت تجتاحنى، والتى حملت من قبل أمثال مصطفى عبد الرازق، وطه حسين، وزكى مبارك، وأحمد ضيف، إلى ماوراء البحار، لاستقاء المعرفة من مصادرها النقية، المصقولة، المثقفة، فخلعوا جميعا زيهم الأزهر- فيما عدا مصطفى عبد الرازق- ودخلوا فى الزى الأوروبى .

المهم أننى غيّرت، وأصبحت اتفادى لقاء عبد الوهاب عبد

العزيز فى زيى الجديد، لكننى لم أستطع أن أفعل ذلك إلى الأبد؛ فذات صباح وجدت نفسى معه، فى منعطف، بناية وجها لوجه. أبدى دهشة بل فزعا، وأخذ يردد عبارات غاضبة جدا من مثل؛ لاشيخ محمود! إلا أنت ياشيخ محمود؛ ألم تنظر قبل خروجك من بيتك فى المرآة؟ وكيف تستبدل بزيك الجميل الجليل هذه الملابس التى يمكن أن يرتديها كل إنسان؟ كان من الواضح أن أمله خاب فىّ، وأنه خسر بى خسارة كبيرة فى الجبهة التى يحارب فيها. ومازال بى حتى حصل منى على تعهد بأن أعود إلى «عمامتى وكاكولتى»، وبألا أعود إلى مثل ما أنا فيه أبدا! وأكد لى – بمغلظ الأيمان– أن بعد مابين هيئتى فى الحالين بعد مابين السماء والأرض .

عدت حزينا ، كاسف البال، إلى أصدقائى «المثقفين» فى مقهى «الفيشاوى» ورويت لهم مجمل ماحدث. ولم يكونوا أبدا ممن يرضون الهزيمة؛ فقد كانت رياح التغير تهب لصالحهم، وقد عقدوا لى جلسة عتاب، بل حساب، شديدة جدا، ووضعونى في موقف الخيار بين المضى معهم فى طريقهم– التى كانت طريقى– «بالبدلة» أو العودة إلى طريق عشاق الماضى «بالعمة والكاكولا» . لم أستطع خداع نفسى، أو التنكر لأشواقى، واستجبت بصفة نهائية لنداء

المستقبل ، فقد كان يجتاحنى اجتياحا ، وقررت عدم الوفاء بوعدى لشيخى، محاولا الاختفاء من طريقه إلى الأبد.

وذات صباح صيفى، كنت فيه على وشك أن انتهى من دراستى الثانوية الأزهرية، فاجأنى عبد الوهاب عبد العزيز فى أحد المنعطفات المفضية إلى بنايات المعهد. لم أتنبه إلى وجوده حتى كان هو قد وضعنى فى مجال رؤيته تماما ، وتمكن من تفحصى، وحين بادلته النظر كان قد بدأ يتحول عنى، وعلى وجهه انطباع من لا يعرفنى على الإطلاق. تحققت فى وجهه نوعا من الإهمال المتعمد، ونوعا من التعالى لم أعهده فيه من قبل. ولما كنت أحبه واحترمه، فقد غفرت له فيما بينى وبين نفسى. ابتلعت الإهانة المتعمدة، ومضى هو فى طريقه، ومضيت فى طريقى !

على سبيل «الببليوجرافيا»

أقدم فى هذه «الببليوجرافيا» صورة مجملة لما قمت به من أعمال علمية. ولست حريصا على اتباع النظام التقليدى المعتمد فى كتابة هذا النوع المعرفى ، من «العنوان»، ورقم «الطبعة» ، واسم «الناشر» ، «ومكان النشر»، «وزمانه» على نحو دقيق؛ فذلك يحتاج إلى مجهود لم أقم به، كما أنه ليس من أهدافى حين ألحقه بسيرتى الذاتية. إنما أردت أن أعرض على قارئى بعض ثمرات تعليمى، راجيا أن يرضيه الجهد الذى قمت به أداء لضريبة المعرفة، وتدليلا على أننى لم أضيّع من وقتى شيئا ، منذ أن تأهلت للكتابة المتفحصة. ثم أننى أريد أن أسهّل له، بعض التسهيل ، الطريق إلى مزيد من النظر فى نتيجة جهدى، إذا أراد. ويقع مجهودى هذا فى ثلاثة أبواب، هى الترجمة عن الإنجليزية، والتأليف، وتحقيق التراث، وأفصّل ذلك بعض التفصيل فيما يلى .

أولا : الترجمة :

١- F.O' Connor, The Lonely Voice

ترجمته بعنوان : «الصوت المنفرد» ، ونشر مرتين ؛ الأولى عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، سنة ١٩٦٨ ، والثانية عن هيئة الكتاب ، سنة ١٩٩٣.

R.Hamphrey, Stream of Consciousness in The Modern Novel -٢

ترجمته بعنوان : «تيار الوعى في الرواية الحديثة»، ونشر مرتين؛ الأولى عن دار المعارف سنة ١٩٧٣، والثانية عن دار غريب سنة ٢٠٠٠.

The Critical Moment -٣

ترجمته بعنوان «حاضر النقد الأدبى» ، وهو لمجموعة من الباحثين والنقاد، نشر مرتين ؛ الأولى عن دار المعارف، سنة ١٩٧٤، والثانية عن دار غريب سنة ١٩٩٨.

ثانيا : التأليف :

Women Writers and Critics in Modern Egypt -٤

وهى رسالتى للدكتوراه . لم تترجم.

٥- فى نقد الشعر : كتاب فى النقد النظرى. نشر عن دار المعارف سنة ١٩٦٩، وعن دار غريب ، سنة ١٩٩٨.

٦- قراءة الرواية: تحليل تطبيقى لست روايات من نجيب محفوظ.

نشر عن دار المعارف سنة ١٩٧٣، وعن دار غريب سنة ١٩٩٧.

٧- نصوص من النقد العربى (مع مقدمة تحليلية)، نشر عن دار المعارف سنة ١٩٧٦، وعن دار غريب سنة ٢٠٠٠.

٨- مقالات نقدية : مقالات نظرية وتطبيقية، نشر في مكتبة الشباب سنة ١٩٧٨.

٩- قراءة الشعر: في النقد التطبيقي، نشر عن دار غريب سنة ١٩٩٧.

١٠- من أوراقي النقدية: نظري تطبيقي، نشر عن دار غريب سنة ١٩٩٦.

١١- في النقد الأدبي وما إليه: نظري تطبيقي، نشر عن دار غريب سنة ٢٠٠١.

١٢- مقالات أدبية قصيرة: نشر عن دار غريب سنة ٢٠٠١.

١٣- في الخمسين عرفت طريقي (الجزء الأول من سيرتي الذاتية) ، نشر في طبعة خاصة سنة ١٩٩١، وعن دار غريب سنة ٢٠٠٠.

١٤- أوديب بين سوفكليس والحكيم، نشر مرة واحدة عن «دار الثقافة العربية». «بدون تاريخ».

١٥- الكتاب الأساسي (جـ٣) في تعليم العربية للأجانب: نشر بالاشتراك مع السعيد بدوي ومحمد حماسة عن جامعة الدول العربية سنة ١٩٩٣.

١٦- النقد والبلاغة (للمستوى الخاص) ، نشر بالاشتراك مع مصطفى الشكعة ويوسف الحمادي عن وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٧٧.

١٧- الأدب والنصوص (بالاشتراك مع علي البجاوي وإبراهيم يونس) نشر عن وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٨٦.

- أما الأبحاث والمقالات التى كتبتها ما بين سنتى ١٩٦٦، ٢٠٠٣، فأقدم هنا ما استطعت حصره من عناوينها للقارئ :

أ- أبحاث :

١٨- قضية المعجم الشعرى، وأثرها فى النقد الحديث، المجلة: ١٩٦٦.

١٩- عقبات فى طريق النقد العربى الحديث، المجلة: ١٩٦٧.

٢٠- الصوت المتوحد، المجلة : ١٩٦٨.

٢١- دراسة العقاد بين الشيوع والاحتكار، المجلة: ١٩٦٩.

٢٢- من اتجاهات النقد فى الغرب، حوليات دار العلوم : ١٩٦٩.

٢٣- أوديب توفيق الحكيم، المجاهد الثقافى (الجزائر) : ١٩٧٠.

٢٤- أوديب سوفكليس، المجاهد الثقافى : ١٩٧٢.

٢٥- بحيرة الزيتون وفن القصة القصيرة، المجاهد الثقافى: ١٩٧٢.

٢٦- أغنيات نضالية، المجاهد الثقافى : ١٩٧٢.

٢٧- تيار الوعى فى الرواية الحديثة، الثقافة : ١٩٧٤.

٢٨- قراءة قصيدة الأطلال، حوليات دار العلوم : ١٩٧٥.

٢٩- موسم الهجرة إلى الشمال، الموقف العربى : ١٩٧٥.

٣٠- كيف أقرأ العمل الأدبى؟ الكاتب : ١٩٧٥.

٣١- قضية الأدب والمجتمع ، الكاتب : ١٩٧٦.

٣٢- أزمة الحياة الأدبية ، الكاتب : ١٩٧٧.

٣٣- عن القراءة والقراءة الأدبية، الهلال: ١٩٧٨.

٣٤- شعر العقاد، حوليات كلية الآداب (الكويت) : ١٩٨٠.

٣٥- نحو منهج فى نقد الأدب العربى، الدوحة (قطر) : ١٩٨١.

٣٦- مدخل إلى قراءة الشعر (الكتاب التذكارى لاحتفال جامعة الكويت بدخول القرن الخامس عشر الهجرى) : ١٩٨١.

٣٧- لغة الشعر المعاصر ، فصول : ١٩٨١.

٣٨- نظرة فى قصيدة جاهلية (الكتاب التذكارى للاحتفال ببلوغ محمود شاكر سن السبعين) : ١٩٨٢.

٣٩- توازن البناء فى شعر شوقى، فصول : ١٩٨٢.

٤٠- روعة الاقتراب من شعر المتنبى، إبداع: ١٩٨٤.

٤١- الناقد العربى الحديث فى مفترق الطرق، العربى: ١٩٨٦.

٤٢- شارات المجد المنطفئة ، العربى : ١٩٨٧.

٤٣- صراع مع الفن وصراع مع الطبيعة، دراسات عربية : ١٩٨٧.

٤٤- النقد والحداثة (عرض ومناقشة) ، فصول : ١٩٨٤.

٤٥- أثر اللسانيات فى النقد العربى الحديث (عرض ومناقشة) فصول: ١٩٨٤.

٤٦- "إبداع" فى مرآة النقد ، إبداع : ١٩٨٤.

٤٧- من مشكلات الحداثة ، إبداع : ١٩٨٤.

٤٨- بناء الرواية (عرض ومناقشة)، عالم الكتاب : ١٩٨٤.

٤٩- لغة القصة القصيرة ، القاهرة : ١٩٨٥.

٥٠- ندوة "فصول" ، فصول : ١٩٨٦.

٥١- الشاعر والمدينة ، عالم الفكر : ١٩٨٨.

٥٢- نجيب محفوظ والنقد الأدبى ، البيان (الكويت) : ١٩٨٩.

٥٣- مولع بشعر المتنبى، الهلال : ١٩٩١.

٥٤- العقاد والشعر ؛ النظرية والتطبيق، الشعر : ١٩٩١.

٥٥- مستقبل الثقافة فى مصر- قراءة حرة فى نص تنويرى، مجلة مجمع اللغة العربية : ١٩٩١.

٥٦- شهادة نقدية ، فصول : ١٩٩٠.

٥٧- ليالى المسك العتيقة ، العربى : ١٩٩٢.

٥٨- مدن بلا نخيل ، العربى : ١٩٩٣.

٥٩- نعيش، ونتذكر، (الكتاب التذكارى لرحيل محمود قاسم) : ١٩٩٣.

٦٠- مداخل معاصرة لدراسة النص الأدبى ، عالم الفكر : ١٩٩٤.

٦١- الرومانتيكيون والديوانيون مؤتمر قضايا الأدب المقارن فى الوطن العربى، ١٩٩٥.

٦٢- الشعر والنقد، فصول : ١٩٩٧.

٦٣- الشيخ الذى لم يكن تقليديا، العربى : ١٩٩٧.

٦٤- المرايا المحدبة (عرض ومناقشة) ، الهلال : ١٩٩٨.

٦٥- البحث عن اليقين المراوغ (عرض ومناقشة)، العربى : ١٩٩٩.

٦٦- النص المحفوظى: نظرة من قريب، فصول : ١٩٩٩.

٦٧- صورة الشعر العربى فى قرن من الزمان، الهلال: ١٩٩٩.

٦٨- حرية الإبداع وحرية التلقى ، إبداع : ١٩٩٩.

٦٩- الاستغراق الشعرى: صور من المتنبى، ألف: ٢٠٠١.

٧٠- شنق زهران، الهلال: ٢٠٠١.

٧١- لمن يكتب الناقد؟ ، الهلال : ٢٠٠١.

٧٢- فى صحبة روائى عظيم، إبداع : ٢٠٠٢ .

٧٣- تواصل الأجيال، الهلال : ٢٠٠٢.

٧٤- المرايا المحدبة: من البنيوية إلى التفكيك (عرض ومناقشة) الهلال: ١٩٩٨.

٧٥- الحب عندى هو تجويد العمل ، العربى ٢٠٠٢.

٧٦- إلى صديق العمر الجميل : أحمد مختار عمر (قيد النشر فى كتاب تذكارى).

٧٧- الرواية والمدينة (قيد النشر فى مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة).

٧٨- عبدالله الطيب المرشد إلى فهم أشعار العرب (قيد النشر فى العربى).

ب- مقالات ثقافية :

٧٩- نجيب محفوظ وعبقرية المكان ، الأخبار : ١٩٨٤/١٢/١٢.

٨٠- معنى الحداثة، الأخبار : ١٩٨٥/١٢/٤.

٨١- مقولة الغزو الثقافى ، وطنى : ١٩٨٦/١٢/١٦.

٨٢- البنيـويون حـولوا الأدب إلى إحـصــاءات ، الشــرق الأوسط: ١٩٨٦/١٠/١.

٨٣- الثقافة ووحدة الأمة، الأهرام : ١٩٨٧/١٢/٢٥.

٨٤- حيرة التعليم الجامعى، الأهرام : ١٩٨٨/٤/٢٢.

٨٥- الأفكار لا الأفراد ، الأهرام : ١٩٨٨/٤/٢٩.

٨٦- المؤتمرات الأدبية، الأهرام : ١٩٨٨/٨/٢.

٨٧- العلماء لا يقفون فى الطابور، الأهرام : ١٩٨٨/٩/٣.

٨٨- فلنتأمل ، الأهرام : ١٩٨٨/١٠/٧.

٨٩- الظاهرة المحفوظية، الأهرام : ١٩٨٩/٣/١٧.

٩٠- الابتكار والإلهام ، الأهرام : ١٩٨٩/٦/٢٢.

٩١- الكتاب المدرسى ، الأهرام : ١٩٩٠/٣/٢.

٩٢- ذكريات ثقافية، الأهرام : ١٩٩٠/٤/٢٠.

٩٣- ترتيب الأولويات ، الأهرام : ٦/٧/١٩٩٠.

٩٤- أبو حيان يحرق كتبه ، الأهرام : ٣/٨/١٩٩٠.

٩٥- النص الأدبى فلسفة خاصة لرؤية الواقع ، الوفد : ١٥/١/١٩٩١.

٩٦- الفقيه والحب، الأهرام : ١١/٦/١٩٩١.

٩٧- المتصايحون بالتراث يقعون على أضعف مافيه ، الوفد : ٤/٧/١٩٩١.

٩٨- منهجى فى قراءة الشعر العربى(١) ، الوفد : ١٠/١٢/١٩٩١.

٩٩- منهجى فى قراءة الشعر العربى(٢) ، الوفد : ١٧/١٢/١٩٩١.

١٠٠- الشعر والنقد ، الأهرام الدولى : ٣٠/١٢/١٩٩١.

١٠١- فى مواجهة النص الأدبى، الأهرام : ١٦/٦/١٩٩٥.

١٠٢- أرفض سياسة الهرولة ، الوفد : ٢٠/١/١٩٩٤.

١٠٣- نجيب محفوظ المظلوم ، الأهرام : ١١/١١/١٩٩٤.

١٠٤- الزمن واللغة والحضارة ، الأهرام : ١٦/٦/١٩٩٥.

١٠٥- سيد النسّاج، الأهرام : ٨/٣/١٩٩٦.

١٠٦- على نقاد قصيدة النثر أن يحلوا التناقض فى التسمية ، الوفد: ٧/١/١٩٩٧.

١٠٧- دور الماضى فى بناء الحاضر ، الأهرام :

١٠٨- أدب الاختيار ، الأهرام : ٣٠/٩/١٩٨٨.

١٠٩- دار العلوم بين ماضيها التاريخى وحاضرها الضائع، الجمهورية: ١٩٨٨/١٠/٩.

١١٠- ذكريات حميمة (عن محمود شاكر) ، الهلال : ١٩٩٧.

١١١- شهادتى فى العربى ، العربى : ١٩٩٨.

١١٢- التكوين ، الهلال : ١٩٩٨.

١١٣- رؤيتى للقرن الحادى والعشرين ، الهلال : ١٩٩٨.

١١٤- إنجاز عظيم ، ولكن ، الهلال : ١٩٩٩.

١١٥- إبراهيم عيسى ودوحة الشعر العربى، الأهرام : ٢٠٠٠/١٢/٢٢.

١١٦- حين تشوّه المعانى ، الهلال : ٢٠٠٢.

١١٧- أبو المعاطى أبو النجا (صورة قلمية) ، المحيط الثقافى : ٢..٢.

١١٨- الحق والباطل ، العربى : ٢٠٠٢.

ثالثا : تحقيق النصوص :

١١٩- تحقيق ودراسة ديوان الشاعر الأموى : القطامى ، هيئة الكتاب : ٢٠٠١.

وأود أن أقول للقارئ - فى نهاية الرحلة - إننى لا أزال أقرأ، بدون حذر ، وأكتب، لكن بحذر ، وأحمد الله على ما أنا فيه .

المحتوى

الموضوع	الصفحة

